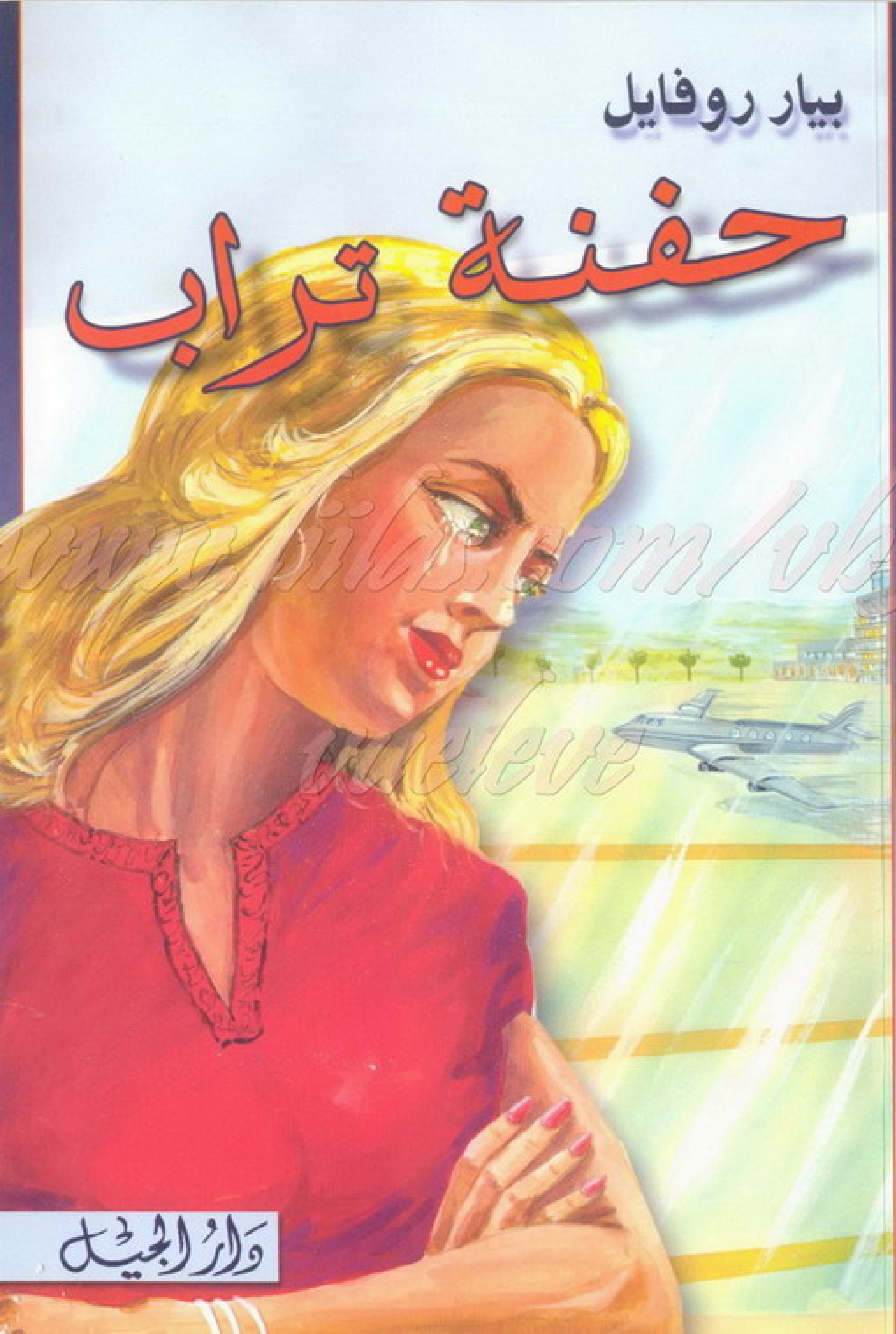
بيار روفايل

حفنة تراب



دار الجيل

في هذا الكتاب خمس قصص من روائع القَصص الإنساني

حفنة تراب

قصة التراب الذي أصبح أغلى وأفضل من الذهب واللآلئ والجواهر.

توبة كاذبة

قصة التوبة الكاذبة الخادعة التي أوصلت التائب الكاذب إلى مجاهل البؤس والشقاء والعذاب.

عودة الربيع

قصة الربيع الزاهر الزاهي الريّان، الذي عاد إلى القلب الذابل الذاوي، فأعاد إليه الفرحة والبهجة والسعادة والشباب.

انتقام الميت

قصة الميت الذي حمل معه غضبه وحقده إلى العالم الثاني لينتقم من أعدائه الجناة انتقاماً رهيباً مخيفاً.

قلب من حجر

قصة القلب البشري الذي يخلو من الحب والعطف فيتحول إلى قلب من حجر.

وكلها تنبع من الواقع البشري، تستمد منه أحداثه وحوادثه، بإسلوب شيِّق رشيق تجعلنا نعيش على صفحات الكتاب ما عاشه أبطالُ القصص في واقع حياتهم.

ISBN 9953-78-037-4
9 789953 780375

حفنة تراب

وقصص أخرى

بيار روفايل

دار الجيل

المقدمة

• «حفنة تراب»... وأية قيمة للتراب بين العناصر والمعادن، بين الذهب والماس والجواهر واللآلئ؟

بالرغم من أن الإنسان جُبل من تراب، وأنه عائد، في النهاية إلى التراب، فهو لا يقدر قيمة التراب، ولا يعيره أي اهتمام.

فالتراب وفير كثير على هذه الأرض، والوفير الكثير لا قيمة له، ولا وزن ولا اعتبار.

ولكن... عندما ترتبط الذكريات بالتراب، يصبح لهذا التراب قيمة كبيرة ووزناً رجيحاً واعتباراً واسعاً رحيباً عميقاً سحيقاً.

ذلك لأن الذكريات أغلى وأجمل وأبهى من كل ما في الأرض من جواهر وحلى وذهب.

في هذه القصة: «حفنة تراب» ذكريات وحنين وشوق وحنان جعلت من التراب كنزاً غالياً ثميناً، أين منه كنوز الأرض قاطبةً.

• «توبة كاذبة» والقصة الثانية في هذا الكتاب، قصة «التوبة الكاذبة»، التوبة الخادعة، التي يخيل للإنسان أنه يستطيع أن يخدع بها من يحب، وهو في الحقيقة لا يخدع إلّا نفسه...

التوبة الكاذبة تقود الإنسان إلى مجاهل الآلام والعذاب، وتصل به إلى دركات البؤس والخوف والشقاء.

والفرق بين التوبة الصادقة، والتوبة الكاذبة، كالفرق بين النور والظلام، وبين الخير والشر.

• **«عودة الربيع»**... والقصة الثالثة في هذا الكتاب قصة «عودة الربيع».

فهل يعود ربيع الإنسان، إذا ولّى وذهب وتوارى!

أجل... الربيع يعود إلى قلب الإنسان.

وعودة الربيع إلى القلب كعودة الربيع إلى الأرض، فهو يحمل إلى شتاء القلب وخريفه، الزهور والعطور والورود والرياحين.

وكما ينشر فصل الربيع، في رحاب الطبيعة، الخضرة والنضرة والعبير، كذلك يبعث الربيع في القلب الزهو والفرحة والسعادة والشباب.

• **«إنتقام الميت»**... والقصة الرابعة، في هذا الكتاب، هي قصة «انتقام الميت»...

فهل يستطيع الأموات أن ينتقموا من الأحياء؟

أجل، يستطيعون...

وانتقام الأموات، أشدّ، وأدهى، وأقسى، من انتقام الأحياء، ذلك لأن الإنسان يستطيع أن يتّقي انتقام عدوّه الحيّ، لأنه يراه ويشاهده ويقف على نواياه، وعلى كل ما يضمر له من الحقد والبغض، ويستطيع أن يكشف وسائل الانتقام التي يعدّها له عدوه الحي.

ولكنه لا يستطيع أن يتّقي انتقام عدوّه الميت. وهو لا يراه، ولا يستطيع أن يقف على ما يضمر له، وما يُعِدُّ من وسائل رهيبة مخيفة للانتقام. والويل كل الويل لمن يكون عدوُّهُ من الأموات.

• **«قلب من حجر»**... أما القصة الخامسة في هذا الكتاب فهي قصة «قلب من حجر»، قصة القلب البشري الذي يخلو من الحب والعطف والشوق والحنين، فيتحول إلى قلب من حجر ويصبح كارثة من البغض والشر تدمر كل من وما يعترض سبيلها.

بيار روفايل

حفنة تراب

الفصل الأول

عندما وصلت الراقصة الفرنسية «فلورانس أرمان» إلى مطار بيروت الدولي للعمل في مسارح لبنان، لم تكن تفكر بسوى المال... المال فقط.

وكانت تحمل عقداً للعمل في صالة ليلية في بيروت، في محلة الزيتونة، حيث ينتشر أبناء الليل وبناته.

بدأت فلورانس عملها في المقهى بنجاح كبير.

ولماذا لا تلاقي النجاح، وهي على جمال رحيب، وفن بعيد، وآمال رحبة وارفة الظلال؟

والتف الشبان حولها يمطرونها بالهدايا وبالعواطف وبالمال.

يمطرونها بما يملكون لتمطرهم بما تملك...

وماذا تملك؟

هوى وحباً وشوقاً وغراماً...

إلا أن فلورانس كانت تأخذ ولا تعطي.

فهي لم تحضر إلى بيروت لتعشق وتحب، بل جاءت لتجمع المال وتعود إلى بلادها.

وكانت الراقصة الرائعة الجمال، قد تركت قلبها هناك، هناك في باريس، قبل أن تحضر إلى لبنان.

فهي من أسرة محترمة كبيرة لم تحترف الفن بل هوته.

فهي هاوية تتقن الرقص الإيقاعي وتجيد القفز والنط على المسارح بصورة تدعو إلى الدهشة والاستغراب.

وكان والدها طبيباً معروفاً في باريس. إلا أن القدر حرمها ذلك الوالد، وهي لما تزل طفلة صغيرة. فاحتضنتها أمها، وانزوت بها في دارهم الأنيقة في العاصمة الفرنسية تبكي حظها المنكود وتنشق في تلك الطفلة الصغيرة البريئة رائحة الوالد الراحل إلى ما وراء الغيب المجهول القرار.

ونشأت فلورانس تحت رعاية والدتها يتيمة الأب. وكانت كلما سمعت إحدى رفيقاتها تنادي أباها اغرورقت عيناها بالدموع وتأوهت وزفرت، وأطلقت للوعاتها العنان وقد ذكرت ذلك الوالد الحنون الذي حرمها إياه القدر قبل أن تكتحل عيناها بنور الشباب.

وكانت فلورانس تحب أمها حباً شديداً. وقد عزمت على أن ترد الجميل لتلك الأم، التي وقفت عليها شبابها وآمالها، فتنسيها ظلم القدر ومرارة الحياة.

وما إن أصبحت قادرة على العمل حتى وثبت إلى ميدان الجهاد... وكانت يومذاك في السابعة عشرة من عمرها الندي.

فعملت كاتبة على الآلة الكاتبة في مكتب أحد المحامين بمرتب ضئيل.

إلا أن العمل لم يرق لها في مكتب المحامي، فانتقلت بعد مدة قصيرة إلى مصنع للخياطة تتعلم المهنة، وقد عزمت على أن تكون خياطة ماهرة.

وهناك في مصنع الخياطة تعرفت إلى فتاة رائعة الجمال تدعى بريجيت دوريه. وكانت بريجيت تعمل خياطة وعارضة أزياء في آن واحد. وتأصلت عرى المودة والصداقة بين بريجيت وفلورانس، فكانتا تقضيان الأيام وبعض الليالي معاً.

كانت بريجيت صاحبة نفوذ في المصنع، فتمكنت من إيجاد عمل لصديقتها الحميمة فلورانس أرمان في قسم الأزياء عارضة للأثواب النسائية الأنيقة.

وكانت فلورانس صاحبة قوام رشيق، ووجه فاتن جذاب، فاستطاعت بعد مدة قصيرة أن تحتل مقاماً مرموقاً في عملها الجديد.

وبدأ الدهر يبتسم لها...

وكانت تنفح أمها بكل ما تتقاضاه في مصنع الخياطة وفي معرض الأزياء.

ولم تكن فلورانس أرمان لتجاري رفيقاتها في العمل، حياة

اللهو والطيش والمجون التي تحياها المرأة الباريسية، بل كانت تقضي أيامها في العمل، ولياليها في المطالعة والتسلية في دارها مع أمها.

وكثيراً ما كانت صديقتها الوفية بريجيت تقضي السهرة وإياها، فتجلسان تتجاذبان أحاديث المرأة وأحاديث الأزياء والتزيين والثياب والحب والشبان والهوى.

وبريجيت ذاقت من الهوى الحلو والمر.

فقد أحبت مرات عديدة وفي كل مرة كانت تخرج من المعركة مثخنة القلب بالجراح، دامية الفؤاد.

ولم تكن بريجيت تثق بالشبان. كلهم في نظرها مخادع كاذب أفاق، يسعى وراء المرأة لينال منها مأرباً، وعندما يصل إلى مأربه يسرع بالهرب كالثعلب المخادع المحتال.

وكانت تعلن رأيها هذا أمام فلورانس، فتنتفض الفتاة البريئة الخالية القلب وتقول: هذا ليس صواباً يا بريجيت. ليس كل الشبان مخادعين، ولا كلهم على صدق ووفاء، كما أن ليس كل النساء طاهرات عفيفات مستقيمات، ولا كلهن فاسقات شريرات مجرمات. الإنسان هو الإنسان، سواء أكان امرأة أو رجلاً، هناك فئتان من البشر: فئة الخير وفئة الشر. وفئة الشر تضم نساء ورجالاً، كما أن فئة الخير تنطوي على الجنسين أيضاً، على

الرجال وعلى النساء. لا تقولي: «الرجال مجرمون والنساء بريئات» يا بريجيت، الخير والشر يحتلان قلب كل إنسان في هذه الحياة. وهما أبداً على صراع هائل مخيف في قلب الإنسان، والويل كل الويل لمن ترجح كفة الشر في قلبه على كفة الخير يا صديقتي، وهنيئاً لمن ينتصر الخير في قلبه على الشر البغيض.

وتبتسم بريجيت وتتمتم: مسكينة. لم تدركي بعد أسرار الحياة. أنت ما زلت طفلة يا فلورانس. لا تعرفين شيئاً من علاقات المرأة بالرجل. إن المرأة والرجل على خلاف مستمر في كل شيء: في العاطفة والتفكير والميول والآراء، حتى وفي البنية. فكأن الله عز وجل، عندما أوجد الإنسان جعل المرأة رمز اللطف والبراءة والوداعة والحنان والشوق والحنين، وجعل الرجل رمز القوة والبطش والمكر والخداع والشراسة والصمود. نحن والرجال على خلاف دائم مستمر. إنني أحذرك منهم يا صديقتي.

لقد كانت بريجيت تحذر صديقتها الوفية فلورانس من الرجال، في حين كانت تندفع هي إليهم.

فقد كانت بريجيت عاشقة ولهى تهيم بشاب أنيق وسيم يدعى «ألبير مورجان»، وكانت تحبه حباً جنونياً، وتغار عليه غيرة عمياء، فلا تسمح له بزيارة أحد، ولا بالجلوس إلى أحد، ولا التحدث مع أحد.

وكان ألبير ابن تاجر معروف. وكان يملك سيارة أنيقة وداراً

صغيرة متواضعة إلا أنها أنيقة إلى أبعد حدود الأناقة. وفي تلك الدار كان يخلو دائماً بحبيبته بريجيت.

أما فلورانس فلم تكن تحب، بل كان ثمة ابن عمها ريشار. فهو قد خطبها من أمها، ووافقت الأم على الطلب.

وما توافق عليه أم فلورانس توافق عليه فلورانس نفسها. وكان بود ريشار أن يعقد زفافه على ابنة عمه فلورانس فوراً، إلا أن الأم وقفت موقف الحذر من السرعة في الزواج، وهي تعلم يقيناً أن في السرعة الندامة.

فرأت أن تستشير فلورانس نفسها في الأمر. وسألتها فما كان من فلورانس إلا أنها أبدت رأيها الصريح.

قالت: أنا لا أرغب في الزواج الآن. أريد أن أتنشق الهواء، أريد أن أتمتع بالحرية قليلاً قبل أن تقفل الأبواب في وجهي. لن أتزوج من سوى ريشار ابن عمي، إلا أن هذا الزواج لن يتم قبل سنوات ثلاث.

واحترمت الأم رأي ابنتها.

ووافق ريشار على رأي فلورانس مرغماً: السنوات الثلاث بعيدة المدى. إنها لتلوح لعيني ريشار أزمان أجيالاً طويلة لا حدود لها ولا نهاية.

واطمأنت فلورانس، وقد تمكنت من إقناع أمها وابن عمها بالتريث.

وانطلقت مع صديقتها الوفية بريجيت، تنشقان معاً أريج الحرية وعبير الانعتاق.

وكانت بريجيت تخبر صديقتها الوفية فلورانس كل ما يدور من أحاديث بينها وبين حبيبها ألبير. وكانت تردِّد على مسامعها كل ما يهمس ألبير في أذنيها من أحاديث الهوى والغرام. فتتمنى فلورانس لو تقع على حبيب مثل ألبير يرتفع بها إلى سماء الحب الخالد المرتفع الأجواء.

وتفيض بريجيت في الوصف فتثير لواعج فلورانس وحنينها.

وتمضي في التمنيات الرحاب: ليت ابن عمها ريشار كحبيب بريجيت. ليته يهمس في أذنها كما يهمس ألبير في أذن بريجيت.

إذن لكانت بألف ألف خير.

وكانت بريجيت تشجعها على البحث عن الحبيب المنشود الذي يستطيع إثارة الحنين في قلبها، وإخماد النار المضطرمة في فؤادها.

وبالرغم من كل ذلك فإن فلورانس ظلت تتربع على قمة الشرف.

فهي تعلم يقينا أن نهاية العشق مصائب وويلات، وأن مصير العشاق الذل والهوان. ورأت أن تقنع من حاضرها بحب ابن عمها ريشار، تاركة للمستقبل اليد في مصير قلبها الولوع.

ورأت أن تتريث في الوصول إلى ما تصل إليه بريجيت بين ذراعي حبيبها ألبير.

قالت في نفسها: «ما تناله بريجيت اليوم حراماً، سأناله غداً حلالاً بين ذراعي زوجي الحبيب ريشار».

وعزمت على المقاومة والصمود. ستقاوم رغبات هذا الجسد الثائر الشرير الذي يسعى أبداً إلى التمرغ في الأوحال فيهوي إلى الحضيض ويجر معه الروح الهائمة في الأعالي إلى أسفل الدركات.

واستطاعت أن تصمد.

فكانت تتقي نظرات الشبان الخبثاء الملتهبة التي تلاحقها.

وتبتعد عن التجربة الكامنة أبداً في طريقها الوعر الشائك البعيد.

ورأت أن تحد من علاقاتها بصديقتها بريجيت دوريه. وفي تلك الصداقة تجربة وانقياد نحو الحب الأثيم.

ونفذت ما عزمت عليه.

فبدأت تنكمش على نفسها، وقد عزمت على أن تبتعد قليلاً عن بريجيت.

إلا أن بريجيت وثبت إليها ذات يوم تقول: فلورانس!... ما رأيك برحلة إلى الشرق؟

فوجمت فلورانس على دهشة واستغراب وتمتمت: ماذ تقولين؟

قالت بريجيت دوريه: أقول الحقيقة. أتوافقين على السفر إلى الشرق؟

قالت فلورانس أرمان: ولكن من أين لنا نفقات الرحلة يا بريجيت؟

قالت: لا تخافي. لن ننفق فرنكاً واحداً في رحلتنا. بل بالعكس فنحن سنجني الأرباح الطائلة. سنذهب إلى الشرق على فقر مدقع ونعود على غنى فضفاض.

فاستوضحت وكيف ذلك؟

قالت بريجيت: اسمعي ما أقوله لك يا صديقتي العزيزة. لقد طلب إلي أحد كبار متعهدي «فرق الباليه الراقصات» السفر إلى الشرق للعمل على مسارح العواصم العربية راقصة مع الراقصات. هذا المتعهد بحاجة إلى خمس راقصات. أنا وأنت وثلاث راقصات، نسافر إلى بلاد السحر والجمال والخرافات بعد ثلاثة أشهر.

قالت فلورانس: وحبيبك ألبير؟ هل يوافق؟

فابتسمت بريجيت: أنا حرة في تصرفاتي. سأذهب إلى الشرق سواء أوافق ألبير أو رفض. له أن ينتظر عودتي إليه إذا كان يقيم مني على هوى حقيقي متين.

ـ ولكن نحن لا نحسن الرقص يا بريجيت؟

ـ لا تخافي. لقد دبرت كل شيء. سندخل معهد الرقص الإيقاعي غداً. والمعهد يكفل لنا الإبداع في هذا الفن الرفيع بعد شهور ثلاثة. قولي هل توافقين أم لا؟

قالت فلورانس: وهل لأحد أن يرفض رحلة رابحة مثل هذه الرحلة؟ سأكون رفيقتك إلى الشرق يا بريجيت.

ووثبت فلورانس إلى أمها تطلعها على النبأ. فوجمت الأم وحاولت الاعتراض. قالت: لمن تتركين أمك يا فلورانس، وقد نأيت عنها وابتعدت عن عينيها؟

وطوّقت فلورانس أمها بذراعيها وانهالت عليها بالقبل.

وتمتمت: غيابي لن يطول إلى أبعد من ستة أشهر يا أمي. سأعود إليك حاملة معي المال الوفير. لا تضيِّعي عليَّ الفرصة لزيارة الشرق الحافل بكل غريب عجيب.

وأقنعتها.

وأسرعت إلى بريجيت لتقول: أنا تحت تصرفك يا بريجيت... أمي وافقت على سفري وعلينا أن نبدأ الاستعداد للسفر.

وأمسكت بريجيت بيد صديقتها فلورانس، وأسرعت بها إلى رئيس «الباليه»، والرئيس قادهما إلى المعهد الخاص بالفن الإيقاعي.

وهناك في المعهد أقامت بريجيت وفلورانس مدة ثلاثة أشهر، وخرجتا بعدها من المعهد لتشدا الرحال إلى بيروت.

وفي بيروت انصرفتا إلى العمل في ملهى رحيب فخم في محلة الزيتونة.

وبدأ الشبان البيروتيون يطاردونهما.

ويعملون على إيقاعهما في الشرك.

وما حاوله شبان بيروت، حاوله شبان الدول العربية الشقيقة الذين يؤمون بيروت للتسلية والاستجمام.

إلا أن فلورانس صمدت في الميدان. فأبت أن تعثر في الطريق المحفوف بالأشواك. وذهبت جميع المحاولات المبذولة هباء منثوراً.

واعتصمت بكبريائها وشموخها وتمردها.

فما وهنت وما لانت، وما جادت على شبان لبنان، ولا على شبان الدول العربية الشقيقة بسوى الابتسامات والغمزات، توزعها عليهم بالعدل والقسطاس.

إلا أن أولئك الشبان ما كانوا ليكتفوا من الفتاة الفرنسية بالقليل من الابتسام والنظر، وهم يدركون أن الباريسيات الفاتنات، يستطعن أن يهبن الرجال أكثر من البسمة والنظرة والكلمات المعسولة الشجية النغمات.

الفصل الثاني

عزمت فلورانس على المضي في الاحتفاظ بقلبها.

فهي لا تريد أن تتخلى عن هذا القلب لئلا يضيع، وتضيع معه آمالها الوارفة وأحلامها العذاب.

إلا أن الإنسان ما كان يوماً قادراً على تنفيذ ما يعزم عليه.

إنه ليعاند الأيام ويحاربها، ويقيم منها أبداً على مقاومة وخصام.

ويكون الانتصار أبداً للأيام...

والأيام انتصرت على فلورانس.

لقد انتصرت عليها. وسلبتها قلبها لتهبه إلى ذلك الشاب الوسيم الأنيق الذي يؤم الملهى، حيث تعمل فلورانس، كل ليلة، ليجلس وحده في زاوية هادئة ساكنة.

وكان الشاب يطيل النظر إلى فلورانس.

إنه ينظر إليها نظرات تائهة بعيدة، عميقة القرار.

وجادت عليه بما تجود على الجميع، بالابتسامة الزاهية البيضاء. إلا أنه لم يبادلها الابتسام، بل ظل غارقاً في وجومه وحيرته وخياله البعيد، المبسوط الجناح.

وأدركت فلورانس أن هذا الشاب، هو غير أولئك. فهو لم يطلب منها شيئاً. لم يطلب حتى الابتسامة.

لذلك فقد جادت عليه بكل شيء...

ورأت فلورانس نفسها منقادة إلى الشاب.

وتوجهت إليه، إلى الزاوية الغارقة في نور أحمر شاحب ضئيل، وجلست قربه. وبدأ التعارف.

ـ أنا سمير سليمان.

ـ وأنا فلورانس... فلورانس أرمان.

ومنذ تلك الليلة بدأ الهوى ينسج خيوطه الدقيقة المتينة حول القلبين، قلب فلورانس وقلب سمير.

وشعر سمير أن تلك الفتاة الطلقة المحيا، الحلوة الابتسامة، الرشيقة القوام، البعيدة النظرات، ليست بغريبة عنه. فكأنه يعرفها منذ أمد بعيد، بعيد جداً.

وما أحسّ به سمير سليمان أحست به فلورانس أرمان.

فأغمضت عينيها وتمتمت: أين شاهدت هذا الشاب؟ أين؟

وحاولت أن تستعيد ذكرياتها البعيدة العميقة السحيقة القرار. إلا أنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً.

إنها لتعرفه، فقد شاهدته. أين؟ ليست تدري.

وكثيراً كثيراً ما يمر الإنسان بمنظر طبيعي، فيخيل إليه أنه شاهد هذا المنظر، ولكنه لا يستطيع أن يحدد المكان والزمان.

فكأننا نأتي إلى هذه الأرض، وفي خيالنا العميق العميق، المجهول، ذكريات ومشاهد ومناظر لا نعلم ما هي ولا نعي منها شيئاً.

ترى هل نحن فعلاً شاهدنا تلك المناظر؟

أم أننا سنشاهدها بعد الموت؟

ليس ثمة من يدري من أمور الحياة والموت إلا ما تشهده العيون وتسمع به الآذان. أما ما وراء حجب الفضاء، فليس لنا أن نتكهن بما يكون.

ثمة الكتب المنزلة، وهي وحدها النور الذي يقودنا إلى الحق السرمدي الخالد. وعلينا أن نسير في النور لئلا نضيع في مجاهل الظلام.

وشعر الاثنان، فلورانس وسمير، أنهما قريبان إلى بعض. فتفاهمت روحاهما قبل أن تتفاهم منهما الشفاه.

وقضى سمير تلك السهرة قرب فلورانس يتجاذبان أطراف الأحاديث الطاهرة البريئة.

وقبل أن يتوارى سمير عن ذلك الملهى، لم ينسَ أن يدعو الراقصة الفرنسية الحسناء إلى تناول الغداء معه في اليوم التالي.

ولم تستطع رفض دعوته.

كيف ترفض الدعوة، وهي بحاجة قصوى إلى نظرات الشاب الحالمة وإلى كلماته تنساب من بين شفتيه كانسياب النسيم العليل؟

ولو أنه لم يدعها إلى الغداء لكانت دعته هي...

قالت، وسمير يدعوها إلى تناول طعام الغداء معه: إنني لسعيدة في قبول دعوتك أيها السيد سمير.

قال: إذن سأحضر إلى دارك وأذهب وإياك إلى تناول طعام الغداء في منتزه أنطلياس الجميل. ولكن أين تكون دارك؟

فابتسمت وتمتمت: ليس لي دار في بيروت. أنا أقيم مع صديقتي بريجيت دوريه في فندق أريزونا.

قال: إذن سأمر إلى الفندق غداً عند الظهر، وستكون صديقتك مدعوة للغداء معنا.

فابتسمت. ومدت له يدها مودعة، والابتسامة لا تفارق ثغرها الجميل. وسار سمير، وخيال الراقصة الفرنسية يلاحقه. وكانت الساعة قد أشرفت على الثالثة من الفجر. فأسرعت فلورانس إلى صديقتها بريجيت تقول: ماذا يا بريجيت ألا تريدين العودة إلى الفندق؟

وابتسمت بريجيت وتمتمت: هل استفقت الآن من نشوتك الحالمة؟ منذ ساعة وأنا أقيم منك على انتظار للعودة وأنت مشغولة بذلك الشاب اللبناني الوسيم الأنيق. قولي لي. كم بلغ ربحك منه الليلة؟

فاحمر وجه فلورانس وتمتمت: لم أشرب سوى كأس ويسكي وإياه.

فغضبت بريجيت وقالت: مجنونة. تسهرين مع شاب إلى الساعة الثالثة. ولا تتناولين معه سوى كأس واحدة؟... لقد شربت عشرين كأساً مع خمسة شبان، دفع المجانين الخمسة ثمن عشرين كأساً من الويسكي، وأنا لم أشرب سوى عشرين كأس شاي ممزوجة بقليل من الويسكي.

وأمسكت بيدها وهي تهدر: تعالي وإياي. فلنعد إلى الفندق. إذا استمرت الحال معك على هذا المنوال فستعودين إلى فرنسا كما جئت إلى لبنان، فقيرة معدمة.

ولم تغضب فلورانس لتأنيب صديقتها. فهي تعلم أن العاطفة تتكلم في بريجيت.

بريجيت لا تريد سوى خيرها. لا بأس إن هي انهالت عليها باللوم والتأنيب...

ووصلتا إلى الفندق، وأسرعتا إلى غرفتهما تندس كل منهما في سريرها وتنغمسان في نوم هانئ عميق. ولم تستفق فلورانس

من نومها في اليوم التالي إلا على جرس الهاتف يرن في غرفتها باستمرار.

فرفعت السماعة وهي لا تزال مستلقية في سريرها.

وتمتمت: من؟ ماذا تريد؟

وقال الصوت: هنا المدير. مدير الفندق، في قاعة الاستقبال شاب ينتظرك اسمه سمير سليمان. يقول إنك وإياه على موعد. هل تريدين مقابلته؟

ووثبت من السرير، وهي لا تزال ممسكة بسماعة الهاتف.

وتمتمت: كم الساعة الآن؟

وأجاب المدير: الساعة تدق الواحدة بعد الظهر أيتها الآنسة فلورانس.

قالت: فلينتظر. إنني قادمة إليه. قدِّم له فنجان قهوة ريثما أصل.

وأسرعت إلى بريجيت تعمل على إيقاظها: انهضي، انهضي يا بريجيت. أسرعي يا عزيزتي.

فرفعت بريجيت اللحاف عن رأسها، وتمتمت وهي لا تزال مغمضة العينين: ماذا تريدين مني في هذا الصباح الباكر أيتها الصغيرة المجنونة؟

فزعقت فلورانس: أي صباح هو هذا؟ الساعة تدق الواحدة

بعد الظهر. انهضي ستتناول طعام الغداء مع الشاب الأنيق في منتزه فوار أنطلياس.

فهدرت بريجيت، وهي تخفي رأسها بين الوسادة واللحاف: «أوه يا لك من فتاة ثقيلة الظل. دعيني أريد أن أنام».

إلا أن فلورانس لم تدعها بل هي رفعت اللحاف عنها وهدرت: انهضي. أسرعي انهضي. إنه ينتظرنا في قاعة الاستقبال.

ولم تبتعد عنها إلا وقد نهضت، وبدأت بارتداء ثيابها على سرعة وعجل.

ودلفتا إلى غرفة الاستقبال. فإذا بسمير سليمان يقيم منهما على انتظار.

وصافحتاه وقدمت فلورانس صديقها الجديد إلى صديقتها، وصديقتها إلى صديقها.

وقادهما سمير إلى سيارته الخاصة يجلسهما قربه ويجلس هو إلى مقود السيارة ويطير بهما إلى منتزه أنطلياس الجاثم بين الخمائل والأشجار، الرابض باطمئنان على ضفة النهر الخالد الرقراق.

وتناولوا طعام الغداء. وتجاذبوا أطراف الأحاديث. جميع الأحاديث...

أحاديث الفن والموسيقى والجمال والسياسة والاجتماع.

وفيما تعود الراقصتان الفاتنتان من المنتزه الجميل، وفيما سمير سليمان منصرف إلى قيادة السيارة أطبقت بريجيت على أذن صديقتها الفرنسية فلورانس هامسة: لم تخطئي في اختيار الصديق. فهو رائع جميل جذاب لطيف. سأسهر معه الليلة من دون أن أشرب على حسابه حتى كأس ويسكي واحدة...

وقهقهتا، والسيارة تنطلق بهما مسابقة الريح إلى بيروت...

وتعدد اجتماع الشاب اللبناني الوسيم بالراقصة الفرنسية الحسناء.

وبدأ الحب ينسج خيوطه الدقيقة المتينة حول قلبيهما فأحبا بعضهما حباً شديداً كالعاصفة قوياً كالموت.

وعلمت فلورانس كل شيء عن حبيبها سمير، فهو شاعر، شاعر ينظم القصائد العاطفية، ويتحف بها الصحف والمجلات العربية. وهو من أسرة لبنانية محافظة محترمة. يملك الأراضي الشاسعة الواسعة في أعالي جبال لبنان، وتدر عليه تلك الأراضي ما يكفيه ويزيد عن حاجته. وهو يتيم الأب يعيش مع أمه في دار فخمة في قرية لبنانية هادئة. ويدلف كل أسبوع مرة أو مرتين إلى بيروت فيقضي أعماله وأشغاله، ويتمتع باللهو والطرب والفن، فهو فنان بطبيعته، يهوى الرقص والموسيقى والغناء.

إلا أن سميراً، وقد أحب الراقصة الفرنسية الفاتنة، بدأ يحضر صباح كل يوم بسيارته الخاصة من قريته إلى بيروت. ويهرع إلى

فلورانس الحبيبة بمسك يدها ويطير وإياها إلى الجبال والأودية والتلال والغابات بغشيانها، ويمتعان أنظارهما بروائع الطبيعة الفاتنة.

ويجلسان تحت ظلال الأشجار الباسقة يرشفان من معين الشوق والحنين ولا يرتويان.

وشعرت فلورنس بأنها أصبحت قطعة من روح سمير.

شعرت بأنها عاجزة عن المسير في الطريق البعيد الذي اختارته ورسمته لنفسها.

لقد شعرت بحاجتها الملحاح إلى نظرات سمير الحالمة، وإلى ابتسامته الهادئة، وإلى شعوره وحنينه وأشواقه.

وأيقنت أنها لن تستطيع البعاد عنه، فوثبت إليه على حنين عميق وحس بعيد لتقول: سمير، لقد استطعت أن تجعل مني امرأة تحس، وكنت قبل أن أتعرف إليك أعيش بلا حس وبلا عاطفة وبلا شعور. لقد استوليت على قلبي يا سمير وأضرمت فيه لهيباً مضطرماً متقد السعير. حاولت كثيراً أن أبتعد عنك فما استطعت... إذا قدر لي أن أنفصل عنك، أفقد كل شيء في هذه الحياة: الأمل والحب والنور والشعور.

قال سمير بألم: إذا شاء الله سنعيش معاً كل العمر يا فلورانس... لن ننفصل عن هذه الأرض. وإذا قدر لنا الانفصال

فسنجتمع هناك، هناك وراء هذا الفضاء الواسع الأرجاء الفسيح الجوانب البعيد، المجهول القرار.

قالت: ولكن لن تسمح لي السلطات بالبقاء هنا... يتحتم علي السفر قريباً يا سمير... أنت تعرف القوانين اللبنانية التي تحرّم إقامة الفنانة الأجنبية أكثر من سنة في لبنان.

قال: هناك طريقتان للبقاء معاً يا فلورانس... إما أن أتزوجك فتصبحين لبنانية ونعيش معاً هنا، وإما أن أسافر معك إلى فرنسا ونعيش هناك... لن نعدم وسيلة للبقاء معاً... لا تخافي، لا تخافي...

وصمت...

وراح ينظر إلى الأفق البعيد بعينين تائهتين تغمرهما الدموع، وكأنه يقرأ في صفحات الفضاء مستقبله الغامض المجهول.

وبعد صمت طويل قال: غداً إن شاء الله أعود إليك يا فلورانس ونتفق على المصير.

ووقف يضمها إلى قلبه ويشدها إلى صدره وكأنه يخشى أن تفلت منه...

وسار... سار من دون أن يلتفت وراءه.

أما هي، فلورانس، فقد وقفت تشيعه بابتسامة هانئة طافحة بالبشرى والأمل والحنين.

وأقامت على انتظار الغد. . .

الغد الذي سيحضر فيه سمير إليها ويزفها البشرى الهانئة.

وكان الغد. . . إلا أن سميراً لم يحضر.

وقلقت عليه. وأقامت ترقب الغد الثاني.

ولكن الغد الثاني مر. . . ومرت بعده الأيام سريعاً كالبرق وسمير سليمان لم يعد إلى فلورانس.

وقلقت فلورانس كل القلق على حبيبها الممعن في النوى والبعد والهجران.

ووثبت إلى صديقتها بريجيت تتمتم: بريجيت! لقد ضاع مني سمير. لا أعلم أين هو، ولا ماذا أصابه. ذهب منذ أيام على أن يعود إلي في اليوم التالي، إلا أنه لم يعد. أنا خائفة يا بريجيت، خائفة أن يضيع سمير مني. ساعديني، ساعديني يا صديقتي الحبيبة في البحث عن حبيبي، ولك الأجر والثواب.

ولبت الراقصة بريجيت نداء صديقتها الوفية فلورانس. فانطلقت تبحث عن سمير سليمان، إلا أنها لم تقع له على أثر.

فلا هو في قريته ولا هو عند أصدقائه في بيروت.

لقد ضاع. فكأنه طار بين الأرض والسماء. وبدأ اليأس يتغلب على الأمل في قلب فلورانس أرمان. وأيقنت أنها خسرت

سميراً. ولن تقع منها العين عليه بعد اليوم. حبيبها ضاع منها. ليتها فقدت حياتها قبل أن تفقد سميراً.

وانزوت أخيراً في الفندق الصغير الجاثم باطمئنان وهدوء على شاطئ البحر الساجي في بيروت، تندب حظها التعس وتبكي حبها الصريع.

وكثيراً كثيراً ما كانت تقف على شرفة الفندق مخاطبة البحر:

ـ «أيها البحر الوسيع الرحيب. . . قل لي أين حبيبي؟ لماذا هجرني؟ لماذا تركني؟ هل أسأت إليه؟ أترى سلخته عني امرأة أخرى؟ قل لي يا بحر، قل أين سمير؟».

فلم يكن البحر ليجيبها بسوى هدير أمواجه، وعربدته الصاخبة، وعويل رياحه المجنونة الهوجاء.

الفصل الثالث

مضت الأيام كالوميض اللامع في الفضاء على سرعة خاطفة، وفلورانس أرمان ماضيةٌ في البحث عن حبيبها سمير سليمان من دون جدوى. وبدأ الأمل يخبو في قلبها، وقد طال بعاد الحبيب الولوع. وأدركت أنها فقدت سميراً، وأنه بات من الصعوبة مرأى وجهه الجميل.

كانت على ألم ولوعة وحنين. لقد عرفت الحب أخيراً، واكتوت بناره المحرقة اللاهبة الحمراء، فذبل الشباب في نضارة ذلك الجسد، وخبت ومضة الجمال في عينيها، وانطفأت الابتسامة على شفتيها النديتين.

وكانت فلورانس تقول لرفيقتها بريجيت: سأظل أتابع العمل في البحث عن حبيبي. لن أنفك أفتش عنه إلى أن أموت. لن يضيع مني سمير يا بريجيت لن يضيع. لن أعود إلى فرنسا إلا ويدي بيد سمير سليمان.

هذا ما كانت تقوله، إلا أن السلطات اللبنانية لم تترك لها مجال البقاء في لبنان، فأنذرتها بضرورة مغادرة البلد اللبناني في العاجل الوشيك.

لقد انتهت مدة إقامتها...

حاولت فلورانس الاعتراض. حاولت التخلص من السفر.

لا. هي لن تعود إلى فرنسا وحدها. تريد أن تعود برفقة حبيبها سمير.

ستمسك يده وتقدمه إلى أمها هامسة: «هذا هو حبيبي. باركينا يا أمي، واعفيني من الزواج بابن عمي ريشار».

وأمها لن تعارض رأيها. ستنزل عند إرادتها.

لن ترغمها على الزواج من ابن عمها، بل هي ستوافق فوراً على زواجها من سمير.

وداعبت أفكارها وأحلامها وأمانيها العذاب طويلاً. إلا أن تلك الأحلام تبخرت هباء منثوراً في الفضاء.

فقد وثب رجال الأمن إليها يرغمونها على مغادرة لبنان، في مدة لا تتجاوز الأسبوع.

وذعرت فلورانس... وبكت واسترحمت واستعطفت ورجت.

إلا أن الدموع والاسترحام والرجاء ما أفادتها شيئاً.

القانون صريح: لا تجوز إقامة الفنانة الأجنبية في لبنان إلى أبعد من عام واحد.

والعام انقضى على وجود فلورانس أرمان في لبنان. ولا يمكن تجاهل القانون.

هناك طريقان يجب على فلورانس سلوك أحدهما: إما العودة إلى بلادها، وإما الزواج من شاب لبناني فتصبح لبنانية، ويحق لها ما يحق للبنانيات المواطنات.

ورأت فلورانس أن لا مناص لها من السفر.

فبدأت تستعد للرحيل، وقلبها يقطر دماً.

ووثبت إلى الأماكن التي كانت تجلس فيها مع حبيبها سمير.

إلى الشاطئ الساجي الفسيح، وإلى الجبال الشامخة الشماء، وإلى الأودية والتلال والسفوح والروابي الخضر الوادعة تودعها، وتقف عند كل منها تذرف الدموع الغزيرة وتتمتم: إذا بربك أيتها الجبال والأودية والتلال والسفوح والرمال حبيبي سمير سلمي لي عليه. وقولي له إن فلورانس ما زالت تذكرك فاذكرها وأطلق روحك إليها لتعانق روحها وتغمر حناياها بالعطف والشوق والحنين.

وكانت فلورانس تخرج صباح كل يوم من الفندق فتطوف الأماكن التي شاهدت حبها الندي المهيض الجناح، ولا تعود إلا والشمس قد تدحرجت وراء الأفق البعيد لتنصرف إلى جمع ثيابها وتهيئة حقائبها للسفر.

وذات مساء وقد عادت من رحلتها، وثب مدير الفندق إليها ليقول: هناك فتاة تنتظرك منذ ساعات أيتها الآنسة فلورانس.

ـ فتاة؟ فرنسية؟

ـ لا، لبنانية إلا أنها تجيد الفرنسية كالباريسيات.

ـ أين هي؟

ـ إنها تنتظرك في قاعة الاستقبال.

وأسرعت فلورانس إلى غرفة الاستقبال لتجد هناك فتاة في مطلع العقد الثالث من العمر على وجهها مسحة من الجمال الطاهر البريء، متشحة بالسواد، والدموع تترقرق في عينيها.

وتقدمت فلورانس من الفتاة تلقي عليها التحية.

فمدت الفتاة الخجول يدها تصافح الراقصة الحسناء وتتمتم: الآنسة فلورانس أرمان؟...

ـ نعم. بماذا تأمرين يا آنستي؟

ـ أنا هدى سليمان ابنة عم سمير سليمان.

وهدرت فلورانس: أين هو؟ أين هو سمير يا هدى؟ بربك قولي لي أين هو؟ أين هو سمير يا هدى؟ بربك قولي لي أين هو؟

ورفعت هدى سليمان منديلها من حقيبتها تمسح دمعتين تدحرجتا على خديها، ثم تخرج رسالة من الحقيبة، وتدفع بها إلى الراقصة الحسناء.

وفضت فلورانس الرسالة على عجل.

وبدأت تلتهم كلماتها القليلة والدموع تغمر عينيها.

وانهالت بأسئلتها على هدى، وقد انتهت من تلاوة الرسالة القصيرة: «أين هو الآن؟ فهو يقول لي في رسالته إنني لن أراه بعد اليوم ويقول إنه ابتعد عني كي لا يسيء إليّ... لماذا؟ لست أدري... بربك يا أختي قولي لي أين هو سمير؟ ماذا حل به؟

وتمتمت شفتا هدى، وقد أرخى الحزن عليهما وشاحه القاتم: أتريدين أن تعلمي القصة كاملة؟ ألا تكتفين بما جاء في الرسالة؟

قالت فلورانس: لا، لا. أريد أن أعلم كل شيء. كل شيء، أريد أن أعلم أين هو سمير؟ أين هو حبيبي؟

فأرسلت هدى زفرة محرقة وتمتمت: سمير رحل. هو ليس الآن من أبناء الأرض. لقد أصبح من أبناء السماء.

وصعقت فلورانس.

وصرخت: مات؟

ـ لقد مات سمير يا فلورانس. مات وعيناه عالقتان برسمك وشفتاه تتمتمان اسمك.

وأجهشت فلورانس أرمان بالبكاء.

واستطاعت بعد جهد كبير أن تتمتم: كيف مات سمير يا هدى؟ ماذا أصابه؟

قالت هدى والدموع لا تفارق مقلتيها: «اسمعي القصة كاملة يا فلورانس. كان سمير يعيش مع أمه في دارهما الفخمة في القرية الهادئة المطمئنة. وكان يشرف على إدارة أملاكه باهتمام كلي. وكانت أرزاقه وأراضيه الشاسعة تدر عليه الأموال الطائلة. وكانت أمه تأمل أن تزوجه من ابنة عمه هدى. مني أنا يا فلورانس. والحقيقة هي أن الأسرة بأسرها كانت تنتظر هذا الزواج إلا أن سميراً تغير فجأة. فلم يعد ليأبه لأراضيه ولا ليهتم بأمه. وأدركت الأم أن ابنها صريع الهوى، فأخذت تبحث عن السبب. وعلمت كل شيء. علمت أن ابنها يهيم براقصة فرنسية اسمها فلورانس أرمان. فكادت تجن ودعت ابنها إليها تؤنبه، وتدعوه إلى الانقطاع عن الحضور إلى بيروت. وتمرد للمرة الأولى في حياته على أمه. ووقف يقول بكل جرأة: «أنا أحب فلورانس ولن أنقطع عنها. إنني أستميت في حبها وسأتزوج منها».

كانت كلماته كالصاعقة على رأس أمه وارتمت على الأرض فاقدة الرشد.

وأمه مصابة بداء القلب، ويخشى على حياتها.

فأسرع سمير إلى الأطباء يستنجد بهم على شفاء أمه. فأقبلوا ليعلنوا أن حياة الأم في خطر، وأن الغضب والحزن والألم والقلق، كل هذه الأمور تقضي عليها.

ووقف سمير حائراً بين أمه وقلبه. كان عليه أن يضحي بأحدهما: بقلبه أو بأمه.

وكان يعلم يقيناً أن حضوره إلى بيروت يثير غضب أمه وحزنها، وربما كان السبب في موتها.

وتريث في الأمر.

كان يأمل أن تحل الأيام المعضلة.

إلا أن أمه وثبت إليه تقول: «يجب أن أفرح بك قبل أن أموت يا ابني. ستتزوج من ابنة عمك هدى».

ولم يستطع سمير أن يرفض طلب أمه، وهو يعلم أن الرفض معناه القضاء عليها.

قال: كما تريدين يا أمي.

قال هذا ووثب إلي يطلعني على كل شيء.

قال لي: هدى! ابنة عمي!... أنا ما أحببتك يوماً إلا محبة الأخ لأخته... أريدك أن تنقذيني يا هدى. ليس ثمة من ينقذ سميراً إلا هدى.

فاستوضحت الحقيقة.

قلت: ما بك يا سمير؟ قل. إنني على استعداد للقيام بأي تضحية تريد يا ابن عمي.

قال: أنا أحب راقصة فرنسية في بيروت. أحبها بكل ما يستطيع أن يحب قلب ويهوى في هذه الحياة. وأريد مخلصاً أن أتزوج منها. إلا أن أمي تريدني أن أتزوج منك. وأنت تعلمين أن الزواج إذا لم يتشح بالحب يكون عقيماً لا سعادة فيه ولا هناء.

فسكتُّ على مضض.

لقد كنت أحب سميراً. كنت أحبه، وأريده زوجاً، لا سيما والأسرة كلها كانت قد اتخذت قراراً بهذا الزواج، وعللت النفس به. فقلت: لا تخف يا سمير، سأنقذ قلبك الولوع. سأعلن رفضي هذا الزواج.

لقد عزمت على التضحية: ما قيمة الحب إذا لم تخضبه دماء التضحية؟

وعندما جاءت أم سمير طالبةً يدي رفضت الطلب.

قلت: مهلاً. إنني أريد أن أكمل دروسي...

وحاولت أم سمير إقناعي بالموافقة فوراً. إلا أنني أصررت على رأيي ودعوت الأهل إلى التريث. واضطروا عند إصراري إلى التريث. وخيل إلي أنني أنقذت حب سمير. لقد خيّل إليّ أنني أنقذت ابن عمي. إلا أنني كنت على خطأ، لأن التضحية التي أقدمت عليها لم تنقذ سميراً.

فقد وقع فريسة داء وبيل. إنه داء الصدر...

وذعرت أم سمير، وذعرنا كلنا، وقد رأينا سميراً يسرع الخطى نحو القبر.

لقد تآمر الداء والحب والحرمان والشوق على سمير. فنشبت مخالب الداء في رئتيه تمعن في نهشهما وتشدّه إلى القبر.

وخشيت أم سمير على وحيدها، وقد شاهدته يقترب من النهاية. وأدركت السبب، فحاولت إصلاح الخطأ.

حاولت أن تدفع به إليك...

ووثبت إليه تقول: «افعل ما تشاء يا ابني. أنا لن أمانع في زواجك من الراقصة الفرنسية».

إلا أن سميراً أطبق عينيه وتمتم: «فات الأوان...».

قالت الأم: لا يا سمير. ما فات الأوان، ستتزوج من حبيبتك الفرنسية وستعيش وإياها عيش الأزواج السعداء يا ابني.

قال: لا. أنا لست مجرماً لأنقل الداء الوبيل من صدري إلى صدر فلورانس. لن أتزوج من فلورانس، لأنني أحبها يا أمي، ولا أريد أن تقع فريسة الداء. لا أريد أن يكون لها مصير سمير. أريدها أن تحيا وتعيش هانئة على صحة وعافية وقوة وجمال.»

ومسحت هدى دموعها بمنديلها الناصع البياض.

وأكملت: «لم يعش سمير طويلاً يا فلورانس. كانت أيام مرضه قليلة. هو نفسه كان يستعجل الداء على نفسه، وكان يقضي أيامه جالساً في الغابة المطلة على البحر ناظراً إلى الأفق البعيد، وكان يحمل صورتك في جيبه دائماً يا فلورانس... كان يقول لنا: «أنا أريد أن أحيا... أريد أن أعيش، لا حباً بالحياة، بل حباً بفلورانس. أريد أن أعود إليها... أريد أن أراها، أن أنعم قربها بالحياة»...

وكثيراً ما رأيناه يقبل رسمك ويبكي.

ومنذ أيام اشتد عليه المرض، وعبثاً ذهبت الأدوية والمصل والعقاقير التي تناولها.

فقد مات وهو يتمتم اسمك... ولم يترك سمير إلا هذه الرسالة، وكان قد سلمني إياها وقال لي: «أوصيك أن تسلميها إلى فلورانس بعد موتي يا هدى... واحملي لها سلامي وأشواقي ومحبتي وحنيني».

وما كادت الراقصة الفاتنة تقف على المأساة الدامية الدامعة حتى أسرعت إلى صديقتها بريجيت مولولة: «بريجيت!... بريجيت!... لقد مات سمير يا بريجيت مات مات. مات حبيبي».

وأمسكت يدها تقودها إلى السيارة.

وانطلقت السيارة بالراقصتين وبهدى سليمان إلى القرية الهاجعة الهادئة الجاثمة تحت أقدام حرج صنوبر ظليل دائم الاخضرار.

وتمتمت فلورانس، وقد وصلت إلى القرية: أين هو قبر سمير ياهدى؟.

قالت هدى: هنا في هذا الحرج الأخضر الوارف الظلال يرقد سمير. تعالي يا فلورنس تعالي نزر قبره. لقد أحببناه معاً فلماذا لا نزور قبره معاً؟

وأسرعت الراقصتان وهدى إلى قبر سمير. ووثبت فلورانس إلى القبر تبلله بدموعها وتمرغ وجهها في ترابه الندي... ووقفت هدى قربها تبكي بدموع غزيرة. وامتزجت همساتهما: «سميرا!... سميرا!... سميرا!».

* * *

الراقصة فلورانس وصديقتها بريجيت في مطار بيروت الدولي تتأهبان للسفر إلى بلادهما.

ووقفت بريجيت، ويدها تقبض بحرص وحذر على المحفظة الجلدية الكبيرة التي تحتوي على المال الوفير الذي جمعته في لبنان.

فهي لم تحضر مع صديقتها فلورانس إلى لبنان إلا لتجمعا المال، وتعودا بالسلامة إلى فرنسا.

ووقفت فلورانس قربها، تنظر إلى الفضاء الواسع الرحيب، والدموع تترقرق في عينيها التائهتين الجميلتين، حاملة بيدها «علبة» من خشب الأرز الثمين.

ووثب رجال الجمارك يفتشون حقائب الراقصتين الفرنسيتين.

وابتعدت فلورانس عنهم، وقد انهمرت الدموع العالقة في مقلتيها على الوجنتين النضرتين.

وأخذت تراقب المفتشين وهم يفتشون الحقائب، والدموع تنسكب غزيرة على خديها.

وأنهوا التفتيش، وتقدموا منها طالبين إليها السماح لهم بتلك العلبة الخشبية الأنيقة التي تحملها في يدها وتحرص عليها كل الحرص.

وأبت أن تسلمهم العلبة. وكانت ممانعتها حافزاً لهم للإصرار على التفتيش.

وأخيراً، انتزعوا العلبة من بين يديها...

وفتحوها...

ماذا في العلبة؟

فيها حفنة تراب.

تراب لبناني... تراب أخذته الراقصة الفرنسية عن قبر حبيبها سمير سليمان.

هذا كل ما جمعته الراقصة الفرنسية فلورانس أرمان من لبنان.

توبة كاذبة

الفصل الأول

أقام عادل المختار على حيرة وارتباك وقلق ووجوم. وجلس على كرسيه في محله العامر في سوق سرسق في بيروت يدخن لفافة التبغ وينفث دخانها في الفضاء. ثم يحدق بالدخان المتصاعد كالأشباح، ويغيب في تفكيره العميق القرار.

وطال وجومه... ويبدأ الزبائن يفدون إلى متجره، فيندفع الخدم إليهم يلبون الطلب، وسيدهم عادل لا ينفك في جلسته الحائرة الواجمة الحزينة.

وتغامز الخدم... وتهامسوا، وهم لا يجهلون سبب وجوم سيدهم وقلقه وارتباكه. وهو الذي كان لأمد قصير دائم المرح، سريع النكتة، طلق المحيا، مفتر الثغر، طروب.

وكان لأيام قليلة خلت يندفع بنفسه، قبل الموظفين والخدم إلى تلبية طلبات زبائنه، يعرض هذا الثوب على تلك السيدة،

وذلك المنديل الثمين على ذاك السيد الوقور، مروجاً بضاعته ملبياً أوامر السيدات والسادة المندفعين إلى محله بثقة عارمة عمياء.

وعادل المختار صاحب محل كبير في سوق سرسق في بيروت.

وهو تاجر محترم محبوب، كريم الخلق سخي الكف أنوف.

وهذا ما أهاب برواد سوق سرسق إلى اقتحام محل المختار يشترون الثياب والحرائر والأجواخ.

ويزدحم متجر ابن المختار بالشارين، في حين يقيم جيرانه التجار على حرمان.

الكل من رواد السوق يشخص إلى محل عادل المختار، ولهم في صاحب المحل الأمل الباسم والثقة العمياء.

وعادل مستقيم في تجارته. والسعر في المحل محدود، ما يساوي ليرة لبنانية يبيعه بليرة وما يساوي عشر ليرات لا يباع في محله بسوى عشر ليرات.

وهذه الاستقامة أهابت بالزبائن الكرام إلى وضع الثقة كل الثقة في المحل وفي صاحب المحل.

فازدهرت تجارة عادل المختار وازدهت. وتكاثرت أرباحه.

فشيد داراً فخمة في «ضهور الأشرفية» المتكئة على كتف بيروت على هنأة وراحة واطمئنان.

وأقام التاجر المحترم في داره في «ضهور الأشرفية» مع أسرته، مع زوجته دلال وأولادهما سمير وبشير ومنى.

والكبير من الأولاد لم يتجاوز الثامنة من عمره أما منى الصغيرة فهي لم تتجاوز السنوات الثلاث.

ونعم عادل المختار بالسعادة التامة. تجارته على ازدهار، وأسرته على صحة وعافية وهناء.

وهذا كل ما كان يرجوه التاجر الكبير.

وكان عادل على بسمة دائمة الازدهار مشرقة وضاحة زاهية.

كان هذا لأيام خلت.

أما اليوم فهو دائم الاكفهرار مقطب الحاجبين عبوس.

والسبب يعرفه خدم المحل... سيدهم عاشق ولهان.

لقد عبث الغرام بقلبه، فمسح البسمة عن شفتيه وأزال الإشراق عن جبينه. فأصبح يدخل إلى المحل على اكفهرار وعبوس، ويغادره وهو مقطب الحاجبين ثائر غضوب.

وما لاقاه الخدم في المحل من ثورة عادل المختار، لاقته الأسرة في البيت...

فهو لا يدخل إلى بيته إلا لينزوي في غرفته، يدخن اللفائف ويحرق معها أنفاسه. وإذا تفوهت زوجته بكلمة، ثار في وجهها. أما أولاده فالويل كل الويل لهم إذا بكوا أو إذا تكلموا بأصوات عالية. فهو يثب إليهم وينهال عليهم بالضرب.

وعادل المختار نفسه لم يكن راضياً عن نفسه، وهو لا يعلم إلى أين يسير، ولا ما هو المصير.

ويذكر بداية حبه يوم جاءت إلى محله . . . ويوم رآها.

فحاول المقاومة، مقاومة نظراتها الساحرة ورشاقتها وجمالها ولطفها وابتسامتها الزاهية المشعة على الشفتين الحمراوين القانيتين. وقاوم . . . قاوم طويلاً. إلا أنه لم يستطع المقاومة حتى النهاية.

ويبدو أنها كانت تعلم أن مقاومته لن تطول، فمضت في شن الهجوم.

كانت تحضر إلى محله مراراً عديدة في الأسبوع، متذرعة بشراء بعض الحاجات الخاصة.

وتبدأ بالمساومة، محاولة إطالة الحديث، مع صاحب المحل الرائع من الشباب الريان في القمة العالية الباسقة الشموخ.

وسألها عن اسمها ذات يوم فقالت: اسمي سامية.

وابتسم لها: سامية؟ . . . هكذا؟

وردت الابتسامة ابتسامتين.

وتمتمت شفتاها: سامية شملان من بيروت.

قال: أنا لا أرى المحبس في بنصرك الجميل، أما زالت سامية عزباء؟ . . .

وأدركت ما يجول في خاطره.

فهي في سن وجب عليها فيه الزواج، وقد تجاوزت الثلاثين ربيعاً.

إلا أن جمالها الصاخب المتمرد الصارع ما زال ينافس جمال ابنة العشرين.

وتمتمت: جربت حظي في الزواج فأخفقت. لن أجرب الحظ مرة ثانية.

قال: هل مات؟

قالت: ليته مات. إذن لكنت أرتاح من ذكراه ومن شبحه الذي يطاردني.

ـ وماذا حل به؟

قالت والدمعة بدأت تترقرق في عينيها النجلاوين: أتريد أن تسمع قصتي؟ إلي بفنجان قهوة.

ونادى إليه الخادم.

وقال: «فنجان قهوة يا ولد . . .».

وأمسك يدها يدخلها إلى مكتبه في المحل، ويجلس قربها يشعل لها لفافة وله لفافة.

ويتمتم: ما هي قصتك؟

فتأوهت ومسحت دموعها وتمتمت: كنت في السادسة عشرة من عمري عندما تقدم رجل طالباً يدي من أهلي. فوافق الأهل على الطلب من دون استشارتي. يكفي أنه غني وأنه يستطيع أن ينثر الذهب بين أيدي الأهل الظالمين. وأرغموني على الزواج منه. وتزوجنا وانتقلت وزوجي من القرية إلى بيروت، فأقمنا في دار فخمة في محلة الصنائع، في شارع رائع جميل فتان، حيث يقيم الدبلوماسيون الأجانب وكبار أغنياء لبنان. وبدأ الزوج الغيور ينزل بي العذاب. فسجنني في غرفتي، وأوصد علي الأبواب، وجعل من الخدم حراساً علي. لا تسلني ماذا كان يفعل بي؟ كان يمنع عني الخبز والماء والهواء. بخيل جلف قاسي الفؤاد. ما لاقيته في داره لم يلاقه إنسان في حياته. كان يصد النور عن عيني، ويقيد حريتي، ويمنع الهواء عن أنفي وشدو العصافير عن أذني، ورأيتني أسيرة سجينة فعزمت على الخلاص منه ومن حياتي دفعة واحدة... وذات يوم تظاهرت بأنني أتألم فطلبت منه «الأسبرين»، وما إن جاءني به حتى تجرعت كمية كبيرة من الأقراص كانت كافية لقتلي. إلا أنه استنجد بالطبيب فجاء الطبيب لينقذني من الموت، ورأيتني مرة ثانية أسيرة في داره وتساءلت: ما العمل يا رب؟ ما العمل؟... ورأيت أن أهرب. سأهرب من داره إلى مجاهل الأرض وأعيش على هواي، لا من يعذبني ولا من يحول بيني وبين الماء والهواء... وفي ليلة ممطرة عاصفة صاخبة اغتنمت فرصة نومه. وتسللت من غرفة النوم إلى البهو ومن البهو قفزت

إلى الحديقة. وانغمست في الظلام الدامس. وأطلقت ساقي للريح... ولم أقف إلا وقد تواريت، ليس عن داره ولا عن حي الصنائع، بل عن بيروت بأسرها. ووصلت بي قدماي إلى ضواحي بيروت. وهناك في الضواحي لجأت إلى دار أحد أنسبائي. وأقمت في تلك الدار زهاء شهر كامل، وكان زوجي قد أقام الأرض وأقعدها بحثاً عني. واهتدى إلي، فحاول إقناعي بالعودة إلى داره. إلا أنني رفضت بإصرار. وأبيت أن أعود إلى السجن المظلم المخيف. وتدخل الأهل والأقارب والأصدقاء بيننا، فأرغموه على إعلان طلاقي... وكان الطلاق، وانفصلت نهائياً منه وأقمت في دار متواضعة في ضواحي بيروت حيث عشت عيشاً هانئاً متواضعاً... تعرفت إلى كثيرين من الشبان. وتعرف كثيرون إلي، والذين طلبوا يدي كثيرون أيضاً، إلا أنني أبيت أن أضع القيود في يدي مرة ثانية وقد تحررت من القيود في المرة الأولى.

ورشفت قهوتها. ونفثت دخان لفافتها في الفضاء. ثم أخرجت منديلها الحريري الثمين من حقيبتها الجلدية السوداء فمسحت دموعها. وتمتمت: هذه قسمتي من الحياة، وقد رضيت بها. وسأعيش العمر وحيدة على هذه الأرض الفانية.

وأبدى التاجر عادل المختار أسفه لقصة المرأة الجميلة الفاتنة.

وظهر التأثر في عينيه وتمتم: ما أكثر مصائب الناس في هذه الحياة! وما أمر الدموع في عيون البشر!

وراح يؤاسيها، وقد لاح له فيها الألم العميق والحنين البعيد.

هذه امرأة بائسة ظلمتها الحياة...

وهبتها الفتنة والجمال، وضنت عليها بسعادة القلب وصفو العيش ورغد الأيام.

يا للحياة القاسية الظالمة التي تعذب بني البشر، وتجعل من أيامهم ليالي ومن أنوارهم ظلاماً دامساً مخيفاً.

وأشفق عليها... وودّ لو يستطيع أن يخفف من آلامها ومن أشجانها وأحزانها ودموعها.

ولمست هي فيه العطف والحنان فراحت تعمل على إلقاء الشرك.

الطريدة سهلة الانقياد. فلماذا لا تغتنم سامية شملان الفرصة السانحة وتلقي الشرك في الطريق؟

وسامية شملان كانت كاذبة في كل ما تدعيه.

لم يرغمها أهلها على الزواج. ولا هم أجبروها على الاقتران بالرجل الغني.

لقد هربت وإياه من دار أختها في بيروت.

أحبته وأحبها وقضت وإياه أجمل الأيام وأصفى الليالي.

وعلمت أختها، زوجة السيد بديع المروان، بأن شقيقتها سامية تتمرغ في هوى فاسق فاجر بذيء فثارت وهددتها بالضرب.

فما كان من سامية إلا أنها هربت من دار أختها ولحقت بحبيبها.

ولم يكن لسامية أم ولا أب... فقد رحل الوالد والوالدة عن هذه الحياة منذ سنوات.

ليس لها في هذه الحياة إلا أختها.

وأختها امرأة فاضلة تعيش مع زوجها عيش الزوجات السعيدات.

وكانت تنوي أن تفتش لأختها سامية عن عريس شريف كريم.

إلا أن سامية لم «تتكل» على الأخت. بل بحثت ووجدت وهربت.

وثارت زوجة بديع المروان، وقد علمت أن أختها هربت مع عشيقها.

وراحت تبحث عنها.

فعلمت أنها تعيش مع العشيق من دون زواج في دار في ضواحي بيروت.

فشخصت إلى دار العشيق محاولة إرغامه على الزواج، إلا أنها اصطدمت بأختها.

واشتبكت وإياها في مناقشة حادة، انتهت بأن طردت سامية شقيقتها من دار عشيقها.

ومنذ ذلك اليوم لم تعد سامية لتشاهد أختها.

وانصرفت إلى حياة الطيش والفسق والفجور.

فهربت من دار العشيق القديم إلى دار عشيق جديد.

وتنقلت من دار إلى دار، ومن عشيق إلى عشيق. تأخذ من هذا لتعطي ذاك. وتأخذ من ذاك لتنفق على تلك.

وكانت تعيش على هواها. ليس ثمّ من يفرض مشيئة عليها ولا من يقيّدها بسلطان.

وآمن عادل المختار بما قالت. فراح يعمل على التخفيف من الكارثة القاصمة النازلة بها. . . وعمد إلى مدها بالمال.

فكان يضع في يدها كلما جاءت إلى محله مبلغاً من المال. ويهبها الثياب والأقمشة من دون أن يتقاضى لها ثمناً.

وبات كل من في المحل، من موظفين وخدم، يعرف أن سيد المحل يميل إلى ربة الحسن والجمال سامية شملان.

وكلما انقطعت سامية شملان عن الحضور إلى المحل يجلس عادل المختار، على غضب، ينفث دخان لفافته على ألم وحزن وغضب وشجن.

فيتهامس الخدم والموظفون: مسكين. لن تروق له حال إلا وقد أطلت المرأة الحسناء.

وسامية أدركت أي مكانة تحتل في قلب عادل المختار.

فأخذت تتدلل عليه. تعده بالحضور إلى المتجر ولا تحضر.

وإذا دعته إلى زيارتها في دارها الأنيقة في ضواحي العاصمة اللبنانية الخضراء تتظاهر بالمرض.

وإذا ذهبت وإياه في نزهة تتعمد الالتقاء بصديق فتقف مسلّمة عليه تسأله عن الصحة الغالية والأحوال وصفو الخاطر الكريم.

وتثور الغيرة حمراء قانية في صدر التاجر الكبير.

هذه المرأة الحسناء تعرف كيف تستولي على القلوب وتستأثر بها وتلعب بالأفئدة كما تريد.

وأدرك عادل المختار أي خطر يحيط به في غرامه بسامية شملان.

وود العودة أدراجه.

لقد ودَّ التخلص من هواها العاصف المحرق الجبار. إلا أنه كان قد سار شوطاً بعيداً في الطريق الوعر المحفوف بالأشواك والصخور. . . وعجز عن العودة إلى الوراء فاستسلم، ورفع الراية البيضاء، وسلّم أمره للأقدار تلعب بها، وللأهواء تعصف على جنباتها كما تشتهي وتأمر وتروم.

الفصل الثاني

انغمس عادل المختار في حب سامية شملان، وضاع عن كل من وما حوله.

فلا أسرته، ولا أعماله، ولا متجره، ولا أهله، يصرفونه عن هواه الأثيم.

سامية تساوي لديه الدنيا بأسرها.

ما همه إذا غضب الجميع، ما دامت حبيبته سامية ترتع في صفاء الحياة وبهجة الليالي والأيام.

وراح ينفق عليها بسخاء ما بعده من سخاء.

كل ما يملك فدى عينيها الحلوتين.

ولم يكن ليرد لها طلباً. لها أن تطلب وعليه أن يلبي الطلب.

وسامية، حرسها الله، ليس لطلباتها نهاية.

فهي تريد أن تنتقل من دارها النائية في الضواحي، إلى دار في كبد بيروت، رحمة منها عليه. مسكين عادل. فهو لا يستطيع أن يزورها كل يوم وكل ليلة في دارها النائية البعيدة. يجب أن تستأجر داراً في العاصمة، في صميم العاصمة. أليس كذلك يا حبيبي يا عادل؟

ـ كما تريدين يا روح عادل.

وتنتقل سامية من دارها في الضواحي إلى دارها الجديدة في أجمل شوارع بيروت.

ـ وهذه الدار الحديثة بحاجة إلى أثاث أنيق حديث. أليس كذلك يا حبيبي؟

ـ ليكن ما تشائين يا روح حبيبك.

وتمتد يد التاجر الكبير إلى صندوقه العامر يخرج منه الذهب، ويدفع به إلى حبيبته الفاتنة.

وكأنه يقطع الرغيف عن أطفاله وزوجته ليقدمه إلى عشيقته المسرفة المبذرة المخادعة.

وما إن استقرت سامية شملان في دارها الجديدة، حتى وثبت إلى عادل تقول بابتسامة طافحة بالإغراء: عادل!... أيجوز أن أنتقل من داري إلى زيارات الأصدقاء وإلى زيارتك في المحل سيراً على القدمين؟

فأدرك عادل مبتغاها، وقد بات لا يجهل ما تريد.

وتمتم: غداً، سأشتري لك سيارة يا حبيبتي، سيارة تكون جميلة مثلك. مثلك؟ لا، ليس ثمة جمال كجمالك يا سامية. روحي ومالي فداك يا حياتي.

واشترى لها سيارة. سيارة أنيقة رائعة فخمة.

ولم يبخل عليها بشيء. لا بمال ولا بعاطفة ولا بحنين.

كل ما يملك ملك يديها. لها أن تأمر وعليه أن يطيع.

ولم يكن يحلم بسوى رضاها، وهو يكاد لا يحصل على هذا الرضى.

وبدأت سامية تعمل على تكبيل عادل المختار، واجتذابه إليها...

وكلما حاول الإفلات، شدته نحوها بالسلاسل والقيود، تعمد إلى إثارة الغيرة العمياء في صدره. فتتظاهر بالغضب، وتهرب منه إلى شاب تسايره وتسامره، وتغدق عليه العاطفة والشوق والحنين.

وفقد التاجر الكبير اتزانه، وقد سيطرت سامية شملان على تفكيره وعقله.

وراح ينقاد إليها صاغراً كسير الجناح.

وأهمل كل شيء. كل شيء إلا سامية...

فهو لا يهتم بأعماله، ولا بمحله، ولا بتجارته، ولا بزوجته، ولا بأولاده ولا بداره.

ما هناك سوى سامية في حياة عادل المختار.

وكلما اقترب منها شعر بأنها بعيدة عنه.

وقد صارحته في جلسة من جلساتها بالحقيقة المظلمة العبوس.

قالت: أنا لا أعلم إلى أين أسير في حبك يا عادل. فأنت متزوج، وأنا امرأة بدأ الربيع يجف في عينيّ وبدأت نضارة وجهي تنذر بالذبول. أريد أن أضمن مستقبلي. أريد أن أفكر بالغد، والغد يقترب مني على هول ورهبة وجنون.

قال: إنني مستعد لأن أضمن لك المستقبل الزاهر الزاهي يا سامية.

قالت: كيف تستطيع أن تضمن لي المستقبل الآتي، وأنت متزوج ووالد لثلاثة أولاد؟

قال، وقد أدرك مرماها: سأسجل لك بعض ما أملك من مال كثير وفير.

فابتسمت على هزء: المال لا يكفي. أريد أن أسند رأسي الزاهي في المستقبل الآتي إلى صدر رجل، إلى صدر زوج.

فهاله بيانها: ماذا تقول سامية؟

قالت: أقول الحق. أنت تحبني الآن وأنا أحبك، إلا أن هذا الحب لا يدوم. فلا أنت لي في المستقبل ولا أنا لك. غداً عندما تزحف إلينا الشيخوخة أفتش عنك فلا أجدك. وأحس عندئذ بالفراغ يملأ روحي وبالصقيع يقرس قلبي، ويعبث بحنايا أضلعي.

فوجم... ما تقوله حق. إلا أنه أبى أن يعترف لها بهذا الحق.

قال: لا تفكري بالمستقبل يا حبيبتي. دعي الأيام ترسم لنا الطريق لنسير فيها على هناء وحب وسلام.

وضمها إلى صدره ينشق العطور المسكوبة على شعرها الأسود المواج الطويل.

وخيل إليه أن سامية اقتنعت بما قال.

إلا أنه كان على خطأ. لأن الحبيبة الولوع راحت تبحث عن عشيق جديد يستطيع أن يشبع نهمها ويضمن لها المستقبل البعيد المجهول القرار.

وجنحت عن التاجر عادل المختار.

ماذا تريد منه بعد، وقد استنفدت ماله وحبه؟

وهي تعلم يقيناً أن عادلاً يشرف على الإفلاس. فهو الآن ليس ذلك التاجر الغني، وقد أنفق القسم الأكبر من ثروته عليها.

فهناك الدار التي أثثها لها، والسيارة الأنيقة التي اشتراها، والجواهر والحلى التي غمرها بها؟ والمبالغ الطائلة التي سلبته إياها فخرجت من صندوقه العامر لتستقر في المصرف باسمها.

والحقيقة هي أن عادلاً المختار بدأ يسير نحو الإفلاس بخطوات سريعة.

فقد أهمل محله التجاري في سوق سرسق بعد أن عبث الغرام بقلبه. فهو لا يحضر إلى المحل في الصباح كعادته، ولا يهتم

بالزبائن الكرام. بل هو ترك الأمر إلى الأجراء، وإلى الموظفين والخدم.

والموظفون، إن لم يكونوا قد مدوا أيديهم إلى صندوق سيدهم، فهم لم يدخلوا إلى الصندوق مالاً.

والزبائن انصرفوا عن محل المختار إلى المحال الكثيرة المنتشرة في السوق العامرة بالمحال.

وقد كانوا يؤمون ذلك المحل ثقة منهم بصاحبه عادل المختار، أما وقد أهمل عادل محله فما عليهم إن هم أهملوه.

واستفاق عادل المختار على الحقيقة المرعبة، وقد وفد أصحاب الديون إليه يطالبونه بدينهم.

وهم كثيرون...

فهناك أصحاب البضاعة الذين يمدونه بالحرائر والأجواخ من دون أن يجبروه على دفع الثمن نقداً، وكان لهم فيه الثقة كل الثقة. وهناك صاحب المحل يطالبه ببدل الإيجار. وهناك الموظفون يطالبونه بمرتباتهم، وهناك الأسرة تطالبه بما لها عليه من حق.

ووجم، بل هو ذعر، وقد اتضحت له الحقيقة المرعبة المخيفة السوداء.

وانصرف إلى التفكير: ويله. ما عساه أن يفعل؟

هل يعلن إفلاسه؟

لا، لا مستحيل.

يجب أن يستعيد سمعته الناصعة، واسمه العاطر الفواح الأريج.

وغاص في تفكيره العميق.

وأحصى الديون الغارق فيها. فتبين أنها ثلاثة مئة ألف دولار أميركي.

والمبلغ ضخم. لن يستطيع الوصول إليه إلا إذا باع بنايته التي شيدها في الأشرفية لتكون مأوى لأسرته.

ولكن هل يستطيع بيع البناء، والبناء مسجل باسم زوجته دلال؟...

واستغرق في التفكير: يجب إطلاع دلال على الأمر... هذه زوجته.

أيجوز أن يخفي الحقيقة عن زوجته؟...: أليست الزوجة مجبرة على مشاطرة الزوج هم الحياة وبؤسها وأفراحها وبسماتها ودموعها؟...

وهرول إلى زوجته على ألم وشجن.

وكادت الدمعة تطفر من عينيه.

فوجمت الزوجة. وفتحت له ذراعيها متمتمة: عادل!... ما بك يا حبيبي ما بك؟

قال والغصة تكاد تخنقه: إنني واقع في ضيق مالي يا دلال، ولا أعلم كيف أنجو منه.

فازدادت دلال وجوماً. وصمتت.

فلم تستطع النطق بحرف، واستأنف عادل الكلام ليقول: الأسواق في جمود. والتجارة راكدة. والأحوال سيئة لا تطاق يا دلال. لقد وقعت في خسارة كبيرة ولن أستطيع النهوض من الكبوة الجامحة.

فتمتمت: لا تحاول التمويه يا عادل على زوجتك، لا التجارة راكدة، ولا الأسواق على جمود. الحال بألف خير. الذي تغير هو أنت. أنت الذي انتقل من النور إلى الظلام، من الخير إلى الشر.

وصمت عادل. أتكون زوجته مطلعة على الأمر؟

وتمتمت دلال: أنا أعلم كل شيء يا عادل. أعلم أنك غارق في الإثم. أنت ضال يا عادل ويجب أن تعود إلى الصواب.

فحاول الاعتراض إلا أنها صفعته بالحقيقة المؤلمة الجارحة.

قالت: أيخيل إليك أنني أجهل جريمتك؟... لا، وحقك أنا لا أجهل شيئاً. أنت مغرم بتلك الغانية سامية شملان. إنني أعلم كل شيء. لقد أنفقت عليها أموالك، ومرغت سمعتك بالوحول. وإذا كنت ساكتة عنك فما معنى ذلك أنني أجهل الحقيقة، بل حباً بأولادي وضناً بسمعتنا الزوجية. لا أكثر ولا أقل.

فأخذ عادل المختار يرتجف. وقد علم أن زوجته واقفة على الحقيقة الكاملة. يا ويله! أيقدر لداره الزوجية أن تنهار على رأسه؟

واستأنفت دلال الكلام لتقول باسترحام: عادل! رحماك يا عادل لا تقض على سعادتنا. عد إلى رشدك يا حبيبي. استفق من الكابوس المخيف الذي يسيطر على عقلك. إذا تخليت عن تلك المرأة وجدتْ غيرك ألف عشيق وعشيق، أما إذا تخليت عنا فلا أنا أجد زوجاً مخلصاً، ولا أولادنا يجدون أبا حنوناً غيرك. رحماك، رحماك يا عادل لا تقذف بنا إلى النار. عد إلى سابق عهدنا، إلى تلك السعادة الوارفة الظلال التي هيأتها لنا السماء ويحاول الشيطان سلبنا إياها. لا تكفر بنعمة السماء لئلا تضن علينا السماء بالنعمة يا عادل. رحماك رحماك...

وتدحرجت الدموع غزيرة على وجنتيها.

فوثب عادل إليها يمسح دموعها بمنديله.

ويتمتم: كفى، كفى لا تؤلمي روحي بدموعك يا دلال. سأتوب عما بدر مني. لن أفكر بسوى دلال وبيتي. لقد وضعت حداً بين حياتي السابقة، حياة الظلام، وحياتي المقبلة، حياة الضياء والنور.

وضمها إلى صدره يقبل وجنتيها برفق وحنان.

فاطمأنت إليه.

وتمتمت: روحي فداك يا حبيبي روحي فداك.

قال: فلنعد إلى الحقيقة. ما عسانا أن نفعل بالديون المتراكمة علي؟ أريد أن أنجو من الإفلاس. أريد أن أنقذ سمعتي من الفضيحة. يجب أن أبيع هذه الدار يا دلال.

فهدرت الزوجة الوفية المخلصة: مستحيل، مستحيل، هذه الدار ليست لنا، ليست لي وليست لك. إنها لأولادنا، لسمير وبشير ومنى. ليس لنا أن نمد إليها يداً يا عادل.

قال: وما العمل إذن؟

فانصرفت إلى التفكير...

وخيم الصمت عليهما.

وإذا بدلال تقول بعد صمت قصير: هناك حليٌ وجواهري. خذها فبعها وأنقذ سمعتك من الفضيحة.

قال: أنا مدين بزهاء ثلاث مئة ألف دولار. أتكفي الحلى لسد الديون؟

قالت: هذه الحلى تساوي زهاء مئة ألف دولار. وأنا اقتصدت مبلغ خمسين ألف دولار موجودة في خزانتي سأعطيك إياها وتتدبر الأمر بها.

وقامت إلى حليها تنثرها بين يديه قائلة: خذها. هذه لك، بعها يا حبيبي وسدد ديونك. لن أبقى منها على سوى هذا الخاتم

الماسي الثمين. إنه الخاتم الذي أهدتني إياه المرحومة والدتي ليحمل إلي ذكراها وهي تحت التراب. هذا هو الخاتم الذي أهدته جدتي إلى أمي وقد انتقل من أم إلى أم حتى وصل إلي وهو سينتقل مني إلى ابنتي منى ومن منى إلى ابنتها إن شاء الله.

وجاءت بالأوراق النقدية، بالآلاف الخمسين، تتحفه بها هامسة: خذ هذا هو المبلغ. تدبر أمرك، وأقسم لي أنك لن تعود إلى ارتكاب مثل هذه الهفوة يا عادل.

فضمها إلى قلبه يتمتم: إنني أقسم لك بحياتك وبحياة أولادنا على المضي في طريق الخير حتى النهاية.

وعانقته، وقد آمنت بتوبته.

وخيل إليها أنها أنقذت زوجها من الوهدة العميقة الغور، الشديدة الظلام، التي يتقلب فيها ويغوص في أوحالها.

وأسرع عادل المختار إلى سوق الصاغة يبيع حلى زوجته كلها: الخواتم والعقود و«الأساور» والأقراط و«المباريم».

وجمع الثمن. والثمن كاد يفي بالحاجة، فحمل المال واندفع إلى أصحاب الديون يفي القسم الأكبر من الدين. ويرتاح من الهم الثقيل الرابض على صدره بثقل وانكماش.

وعزم على الانقطاع عن حبيبته سامية. ما له ولها؟ لن يعود إليها وفي عودته انهيار سمعته، وتحطيم كرامته، ودك دعائم أسرته الوطيدة الأركان.

الفصل الثالث

تاب عادل المختار عن المعاصي والشرور، إلا أن توبته كانت توبة كاذبة. فلم يستطع الصمود أمام التجربة الكاسحة. ورأى نفسه ضعيفاً حيال حبه المتمرد الوثوب. وعزم على الانقطاع عن زيارة سامية شملان.

إلا أن سامية شخصت إلى محله سائلة عنه، وقد طال غيابه عنها، فأقلق خاطرها الكريم.

ورحب بها، وأدخلها إلى مكتبه يخلو بها ويبثها نجواه.

وتعانقا...

قالت: أراك علقت بهوى جديد يا عادل. أتكون نسيت حبي ورميتني بعيدة عنك؟

قال: إنك لعلى خطأ يا سامية. أنا ما نسيتك، ولا رميتك بعيداً. بل فكرت ملياً في ما نقدم عليه. يجب أن تفكري بمستقبلك الزاهر الزاهي، لئلا يفوتك القطار وتتلفتين حولك فلا تجدين أحداً قربك، لا زوجاً ولا أخاً، ولا ولداً ولا حبيباً. أنا نأيت عنك لأفتح أمامك الطريق إلى المستقبل الفسيح يا سامية.

فأدمعت عيناها.

وتمتمت: عادل! يا حبيبي، إنني لراضية من دهري بحبك. يكفيني أنك قريب مني، تعطف علي، وتحنو على روحي، وتؤاسي قلبي الهائم الولوع. أنا أحبك، أحبك أحبك. ولا أطيق بعاداً عنك يا حياة سامية.

واقتربت منه على نار لاهبة محرقة، وضمته إلى صدرها المتقد اللهيب بشوق وحنان، وأبت أن تنسلخ عنه، إلا وقد وعدها بالعودة إليها، إلى سابق حبهما السافل الأثيم.

وما إن أسدل الليل ستاره على لبنان، حتى كان عادل المختار يسرع إلى حبيبته القائمة منه على شوق مديد ليرتمي في يم المعاصي والفسق والفجور.

وعاد إلى ماضيه القاتم السواد. عاد إلى هواه الأثيم يغرف منه ولا يرتوي.

وكان ينفق على خليلته بإسراف ما بعده إسراف.

واستفاق فجأة، وأصحاب الديون يطاردونه ويطالبونه بما لهم في ذمته من مال.

إلا أنه كان مشغولاً عنهم.

إنه لفي حلم فاتن جميل باسم وضاح الجبين.

وفي حين كان أصحاب الديون يعملون على إلقاء الحَجْر على محله، كان منصرفاً إلى الاهتمام بعيد مولد سامية شملان.

وكان يبحث لها عن هدية تليق بالمقام الرفيع.

واحتار في أمره...

ماذا يهديها؟ وليس في يده من المال ما يكفي لشراء الهدية. ما العمل؟... ما العمل؟...

وأقام على تفكير...

كان بوده أن يهديها من محله قطعة جوخ تخيطها ثوباً أنيقاً لها.

إلا أن المحل وما في المحل محجوز. ليس له أن يمد إليه يداً. واستأنف التفكير.

وتساءل ماذا أهديها؟... ماذا أهديها؟

وطال تفكيره...

ولاح له خيال بعيد: زوجته ما زالت تحتفظ بالخاتم الماسي الثمين.

لماذا لا يسرق الخاتم ويهديه للخليلة الحسناء؟...

وراقت له الفكرة الموفقة فأسرع بالعودة إلى داره متظاهراً بالحزن والشجن.

وأطلت زوجته تستقبله ببسمة صفراء، صفراء بلون أوراق الخريف، شاحبة بلون الغروب.

وكأنها تقول له: أين قسمك يا عادل؟ . . . كيف تقسم بحياة أطفالك زوراً وبهتاناً؟

ولم يأبه لابتسامتها الهازئة الشامتة العاتبة الحزينة، بل هو أسرع إلى غرفته ينزع عنه ثيابه ويندس في السرير متظاهراً بالنوم العميق.

وآوت الزوجة المخلصة إلى سريرها. ونام الأولاد. وسكنت الدار.

فما هناك همسة ولا حركة ولا صوت.

الكل يرقد في الظلام الدامس الداجي.

واستوى عادل في سريره على حذر.

وراح يسترق السمع: هل هناك من يتمرد على سلطان الكرى؟

هل نام الأولاد؟

هل هجعت دلال؟

وتأكد من نوم الجميع.

فنهض على مهل حافي القدمين إلى الخزانة ففتحها بكل هدوء ومدّ يده إلى العلبة الخشبية الحانية على الخاتم الثمين.

ففتحها، وتناول الخاتم، وعاد إلى السرير يندس فيه.

وبعد قليل، بعد أن تأكد مجدداً أن الجميع نيام، نهض من سريره يرتدي ثيابه على عجل، ويخرج من الدار مهرولاً إلى منزل عشيقته القائمة منه على انتظار بعيد.

واقتحم الباب فوثبت إليه دلال تعانقه بشوق عميق القرار.

فضمها إلى قلبه وهمس في أذنها: «أعاد الله عليك العيد عشرات عشرات الأعياد يا حبيبتي».

وامتدت يده إلى الخاتم يخرجه من جيبه، ويضعه في بنصرها، وهو يبتسم.

وأعجبت سامية بالخاتم الثمين: يا له من خاتم رائع فتان لم تحصل على مثله في حياتها!

وطوقت عادلاً بيديها. وشكرته على هديته الرائعة بقبلة هائلة ممتعة حمراء.

ودخلت وإياه إلى غرفة الطعام يحتفلان بالعيد على طريقتها الخاصة: سكر وعربدة وفسق وفجور.

ولم ينقطعا عن السكر إلا والصبح قد وشح بيروت بوشاحه الجميل الناصع البياض.

ولم يفكر عادل المختار بزوجته ولا بأولاده.

ولم يعلم ماذا حدث بعد تسلله من الدار، ولا ماذا فعلت الزوجة الطاهرة البائسة الحزينة.

وماذا حدث؟

نهضت دلال في الصباح، وقد عزمت على التحدث إلى زوجها وردّه إلى الصواب.

إلا أنها فوجئت بفراره.

لقد كان السرير خالياً: عادل ليس في السرير. ولا هو في الدار؟ أين هو يا رب أين هو؟

وخيل إليها أنه سيعود عند الظهر. واتجهت إلى الخزانة محاولة فتحها.

فإذا بالخزانة مفتوحة . . .

وأدركت أن زوجها فتح الخزانة.

لماذا؟

أتراه بحث عن الخاتم الثمين؟

وتناولت العلبة الخشبية تفتش عن الخاتم، لترتد على وجوم.

الخاتم غير موجود.

لقد أخذه عادل.

يا للزوج المجرم الشرير . . .

وراحت تفكر: لماذا سرق عادل الخاتم؟ من المؤكد أنه سرقه ليهديه إلى عشيقته، إلى سامية شملان.

وذعرت . . . وعزمت على وضع حد لتهتك زوجها.

ارتدت ثيابها على سرعة فائقة، وأسرعت إلى محل زوجها سائلة عنه.

وقيل لها إن السيد عادل لم يحضر بعد.

فأدركت أنه ما زال عند عشيقته الحسناء.

وسألت أحد الموظفين: هل تعلم أين تكون دار سامية شملان؟

فوجم الموظف. وصمت لا يبدي جواباً، وهو يعلم لماذا تسأل زوجة سيده عن دار العشيقة. من المؤكد أنها عازمة على اقتحام تلك الدار.

لا، لن يقول لها أين تكون دار سامية شملان.

وطال صمت الموظف.

فوثبت إلى أحد الخدم تلقي عليه السؤال، وتدس في يده ورقة نقدية.

فحلت عقدة اللسان. وتكلم، وأرشد السيدة دلال إلى دار سامية.

وطارت زوجة عادل المختار إلى دار عشيقة زوجها.

ووقفت تقرع جرس الباب على ألم وحزن وشجن وغضب.

وطالت وقفتها والباب لم يفتح. سامية لا تزال غارقة في نومها العميق بعد السكرة العارمة الهادمة. واستأنفت دلال قرع الجرس.

وتثاءبت سامية في سريرها.

وتلفتت حولها. فإذا بعشيقها عادل لا يزال غارقاً في نومه العميق.

ونهضت من السرير توقظ عادلاً. ثم ترتدي معطفها الأحمر الفاضح وتتوجه إلى الباب تفتحه بتذمر واشمئزاز.

وانتصبت دلال أمام سامية كالقدر الجبار.

ولم تنتظر أن تدعوها سامية للدخول، بل دخلت إلى غرفة الاستقبال، ولحقت سامية بها.

ووقفت دلال تقول: أنا زوجة عادل المختار يا سامية.

وذعرت سامية شملان. ووجمت...

ماذا جاءت تفعل زوجة عشيقها في دارها؟

واستأنفت دلال الكلام لتقول: سامية! أستحلفك بحياتك، بعينيك، بأعز إنسان على قلبك أن تعيدي إليّ زوجي. لقد هدمت سعادتنا على رؤوسنا، رأسي ورؤوس أولادنا الثلاثة. كفى ظلماً يا سامية. كفى عبثاً بكيان الأسرة الآمنة المطمئنة. إن الله ينظر إلى أعمالك من أعالي السماء. ألا تخافين الله؟ ألا ترحمين دموعنا؟ ألا يوجد في قلبك ذرة من رحمة وشفقة وحنان؟...

قالت سامية وقد استعادت روعها: زوجك يا سيدتي يلحق بي. طردته من داري فلم ينفع الطرد فيه. عليك أن تحسني معاملته، عليك أن تعملي على استمالته كي تحتفظي به. ليس لك أن تطلبي مني إعادته إليك، وأنا ما سلبتك إياه.

قالت دلال: أنت سلبتني زوجي. لولاك لظل كما كان، زوجاً صالحاً وأباً حنوناً وسيداً مطاعاً في محله وبيته وبين أصدقائه وأهله وأسرته.

فابتسمت سامية على هزء. وجلست تشعل لفافة وتنفث دخانها في الفضاء.

ولمع الخاتم الماسي الثمين في بنصرها، وهي ترفع اللفافة إلى شفتيها.

وتمتمت: ثقي أنني لم أطلب من زوجك يوماً قرشاً واحداً، ولا هو أتحفني بهدية واحدة.

وتقدمت دلال منها على ثورة وغضب شديد.

وزأرت: وهذا الخاتم؟ هذا الخاتم الذي تحلّين به بنصرك، ماذا تقولين؟ فيه، وقد سرقه من خزانتي ليقدمه لك. إنه الحلية الوحيدة التي أبقاها لي ذكرى من أمي الراحلة.

وإذ بسامية تنتزع الخاتم من بنصرها وتقذف به في وجه دلال. وتهدر: خذيه لدي ما هو أفضل منه. إنه لخاتم من التنك لا يساوي شيئاً.

والتقطت دلال الخاتم.

وتقدمت من سامية تقدمه لها وتقول باسترحام: هذا الخاتم ليس من التنك، ولا هو من الفضة، إنه من البلاتين والماس، إنه خاتم أثري ثمين، ثمنه زهاء خمسة آلاف دولار، وهو ذكرى غالية على قلبي، إلا أن عادلاً أهداك إياه، وأنا أقدمه لك خذيه، خذيه وأعيدي إلي عادلاً. أرجوك أرجوك. إنني أمد إليك يدي، إنني أتوسل إليك. دعيني أقبل يديك، دعيني أقبل قدميك، وأعيدي إلي زوجي.

وجثت على ركبتيها محاولة تقبيل قدميها.

وإذا بباب غرفة النوم يفتح، ويطل منه عادل بثياب النوم.

وشاهد زوجته. وسمع بعض ما دار من حديث بين الزوجة والعشيقة.

فوثب إلى زوجته الوفية المخلصة يصفعها ويصرخ بها: ماذا جئت تفعلين هنا يا مجرمة؟

ونظرت دلال إلى زوجها والدموع تتدحرج على وجنتيها.

وتمتمت: أتضربني يا عادل؟... سامحك الله. كنت أطمع في إعادتك إلى الصواب، في إنقاذك وإنقاذنا. أما الآن فلم أعد لأطمع بشيء. سامحك الله، سامحك الله...

ومسحت دموعها. وخرجت من دار سامية شملان، لا تلوي على شيء.

وأسرعت بالعودة إلى دارها لتحتضن أطفالها وتجهش بالبكاء.

* * *

انقطع عادل المختار عن داره وعن زوجته وأولاده.

وأقام في دار عشيقته الحسناء.

ومضى في الإنفاق عليها بسخاء، وهو لا ينظر إلى المستقبل القريب. وأفلس مجدداً.

ورأى أن يبيع محله لينقذ نفسه فباع المحل. باعه بأبخس الأثمان، وأنفق ما بقي له من الثمن على سامية.

وبدأت سامية تملّ هواه، وقد أدركت أنه أصبح فقيراً.

وراحت تبحث عن عشيق جديد يستطيع أن يشبع نهمها، يستطيع أن ينفق عليها بسخاء، وأن يهبها الحب والسعادة والهناء.

ولم تلقَ عناء في العثور على الحبيب المنشود.

وهناك عشرات الشبان يحومون حول جمالها الصاخب الفتان.

إلا أنها لقيت عناء كبيراً في التخلص من عادل...

عادل المختار يضايقها ويقيد حريتها ويحول دون انطلاقها نحو الحرية الباسمة الخضراء.

واختارت من بين الشبان شاباً أنيقاً وسيماً جميلاً فاتناً.

وهو إلى جانب ذلك غني، يملك سيارة كبيرة فخمة، ومبلغاً محترماً من المال.

وبدأت العلاقات الغرامية تتأصل في القلبين. قلب سامية وقلب العشيق الجديد.

وكانت تجتمع به في أماكن عديدة. حيناً في المقاهي والملاهي، وأحياناً في الأحراج، وتارة في داره هو، وطوراً في مكتبه.

ورأت أن تدعوه إلى دارها هي.

لماذا لا تجتمع وإياه في دارها أو بالأحرى في غرفتها الخاصة، حيث تجتمع بعادل؟

ولكن عادلاً ماذا سيفعل إن هو علم بالأمر؟

ومن أين له أن يعلم؟

فلا هي ستخبره ولا الشاب...

وعمدت إلى تنفيذ ما عزمت عليه فوراً.

فدعت الشاب إلى دارها تترع له كؤوس الخمر وكؤوس الهوى وتسقيه.

إلا أن عادلاً، وقد بات يرتاب بها، كان يراقبها. وكان يعلم يقيناً أنها تخونه، وأنها بدأت تعمل على التخلص منه.

وشعر بإثمه، شعر بجريمته.

فهو قد ضحى بكل شيء في سبيلها...

بسمعته، وبماله ومحله، وبكرامته وشرفه وزوجته وأولاده.

وهي الآن، بعد أن استنفذت قواه وماله، ترمي به بعيداً عنها.

يا للكافرة المجرمة الرقطاء.

وعزم على الانتقام. سينتقم منها انتقاماً رهيباً. لن يبقي عليها. سيفتك بها وينتقم لنفسه ولزوجته ولأولاده منها.

وانصرف إلى التفكير بالانتقام. كما انصرف إلى مراقبتها...

وعلم يوماً أنها تخلو بشاب في الدار، الدار التي استأجرها بماله وأثثها لها.

فشحذ خنجره واقتحم الدار على ثورة لاهبة.

ولم يقف في البهو الخارجي، بل توجه تواً إلى غرفة النوم ليدهم الحبيبة «المخلصة الوفية» بالجرم المشهود بين أحضان عشيقها الجديد.

وتصاعد الدم إلى رأسه. وازدادت الدنيا سواداً في عينيه. وضاع عن رشده.

وإذا بيده تمتد إلى الخنجر المشحوذ تنتضيه.

ويثب إليها، فيلقيها أرضاً ويهدر: يا مجرمة يا مجرمة...

وذعر الشاب، وحمل ثيابه وقفز من النافذة يطلق ساقيه للريح.

وانهال عادل المختار على عشيقته بالطعن.

وراحت سامية تستعطف وتسترحم: عادل!... عادل!... رحماك. عد إلى رشدك. ماذا تفعل يا عادل؟... لا تفتك بي! لا تقتل حبيبتك سامية. عادل!... عادل!... عادل!...

غير أن عادلاً لم يستمع إليها، بل مضى في طعنها.

ولم يرتد عنها إلا وقد أسلمت روحها.

وظلت عيناها مفتوحتين تنظران إلى ما وراء الأبدية على هلع وخوف.

وأسرع عادل بالهرب، تاركاً في الدار كل ما يشير إلى ارتكابه الجريمة. ثيابه وبصمات يديه والخنجر المصقول.

ووثب رجال الأمن يحققون.

واستدعوا شقيقتها وزوجها بديع المروان يحققون معهما.

فأعلنت الشقيقة أن شقيقتها ضلت السبيل وأنها كانت تعيش عيش بذخ وتهتك وإسراف.

واستمروا في التحقيق.

فاتضحت لهم الحقيقة ناصعة البياض، سامية كانت خليلة عادل المختار، وهو قد دهمها بالجرم المشهود مع أحد عشاقها الكثيرين ففتك بها.

ويبدأ البحث عن المجرم الفار.

ولم يطل البحث عنه.

فقد اعتقلوه بينما كان يهم بمغادرة البلاد.

ومثل عادل المختار أمام القضاء...

فلفظ القضاء حكمه العادل فيه. وقضى بسجنه مدى الحياة.

وعندما اقتيد من قاعة المحكمة إلى السجن ليقضي فيه ما بقي له من الأيام على هذه الأرض لاحت في طريقه زوجته دلال تبكي وتتمتم: عادل!... عادل!... عادل!...

وتمتم: دلال!... نصحتني فما استمعت إلى نصيحتك. هذا جزاء ما فعلته بك وبأولادي. اطلبي لي المغفرة من الله يا دلال.

الفصل الرابع

قضى عادل المختار في السجن سنوات طوالاً. ولم يزره أحد إلا زوجته الوفية دلال.

وكانت دلال تعمل خياطة لتؤمن لأطفالها الصغار لقمة الخبز.

وتحمل إلى زوجها السجين من حين إلى آخر بعض الهدايا والثياب والمأكولات التي كان يشتهيها.

وعندما يسألها أولادها عن والدهم تقول لهم: «والدكم مات. كان مسافراً فتدهورت به السيارة وقضى نحبه».

وآمن الأولاد بما قالت أمهم.

وأخبرت زوجها السجين يوماً بما زعمت لأولادها.

فقال: حسناً فعلت يا دلال. لا يجوز أن يعلم الأولاد أن أباهم سجين، وأنه سلك طريق الفسق والرذيلة والفجور. أمنيتي الوحيدة أن أراهم يوماً وهم يتربعون على قمة الشرف الأثيل والكرامة المثناف. إنني أحسدك الآن لأنك تشاهدينهم كل يوم وتستطيعين أن تقبليهم واحداً واحداً. أخبريني كيف سمير؟ وبشير؟ . . . ومنى؟

وتجيب: بألف خير. هم ما زالوا يسألونني عنك. ويصلون من أجل راحة نفسك وقد آمنوا بأنك أصبحت في العالم الثاني.

وتنسكب الدموع غزيرة على وجنتيه. ويتمتم: أحرسهم يا رب ورد عنهم الشر وأبناء الشر.

ومضت السنون على سرعة في الوثوب.

وترعرع أولاد عادل المختار.

وشبّوا على تقوى وتهذيب واحترام، وقد سهرت الأم على تهذيبهم وعلى بذر بذور الطهارة والشرف والنبل والكرامة في نفوسهم.

واستطاعت أن تجمع من عملها في الخياطة مبلغاً محترماً من المال، أنشأت به محلاً لولديها سمير وبشير.

فهي تريد أن تعيد لهما محل والدهما في سوق سرسق. ولم تنقطع عن العمل المضني إلا وقد تربع الشابان سمير وبشير في المحل وراحا يعيدان إليها ماضي عزها وسعادتها الآفل البعيد.

وكما شب سمير وبشير، شبت منى.

ومنى رائعة الحسن والجمال كاملة التهذيب.

فتكاثر طلاب يدها.

إلا أن الأم وهي الحريصة على سعادة ابنتها انتقت لها شاباً من أسرة محترمة يتمتع بمركز اجتماعي ومالي مرموق.

وعقدت خطبة منى على الشاب.

وعيّن موعد العرس، فطارت دلال إلى زوجها إلى السجن تعلن له الخبر وتفرح قلبه.

قالت: عادل، بعد ثلاثة أشهر تزف ابنتنا منى إلى كميل نجل المزارع نادر العواد. كم تمنيت أن تكون معنا ليلة العرس يا عادل.

فأدمعت عيناه، وتمتم على حسرة وألم: وفقها الله وحرسها وصانها يا دلال. أما أنا فمن أين لي أن أحضر إلى العرس ولن أخرج من هذا السجن إلا جثة هامدة إلى القبر؟

ورأت دلال أن تنقطع عن التحدث عن الأولاد، لا سيما عن منى أمامه لئلا تثير حنينه وتستفز من عينيه الدموع.

وأسرعت أدراجها بالعودة وهي تمسح دموعها الغزيرة المنسكبة على وجنتيها الذابلتين تحت ثقل السنين الطوال.

وعاد عادل إلى غرفته المظلمة في السجن.

واستلقى على فراشه القذر يفكر: ماذا قالت دلال؟... قالت: «كم تمنيت أن تكون معنا ليلة العرس...».

آه! ليته يستطيع الخروج من هذا السجن المظلم لدقائق قليلة، ليلة عرس ابنته، يطير بها إلى داره في الأشرفية ويشاهد منى، منى التي تركها طفلة صغيرة وأصبحت الآن صبية حسناء، يشاهدها في ثوب العرس الناصع البياض. إنه على استعداد لبذل حياته ثمناً لتلك الدقائق القليلة.

ومضى في تفكيره العميق، ولاح له خيال بعيد. إن سلوكه الحسن وتهذيبه الكامل وأخلاقه الرضية في السجن، كل هذه الأشياء قربته إلى قلوب الحراس فسمحوا له بالخروج من الغرفة إلى الحديقة.

وقد وثقوا به وأيقنوا أنه لن يحاول الهرب، فلماذا لا يغتنم الفرصة السانحة ويخرج ليلة عرس ابنته إلى الحديقة، ومن الحديقة يقفز فوق السور إلى الطريق العام ويتوجه إلى داره فيشاهد ابنته من وراء زجاج النافذة ويعود إلى السجن؟

وارتاح للفكرة الموفقة.

لن يعلم به أحد. سينغمس في الظلام الدامس فيذهب ويعود من دون أن يراه أحد.

وعاد إلى الحديقة يستعرض السور العالي الأجنحة المغروسة أطرافه بالزجاج وبالمسامير.

إذا استطاع تسلق السور فهو سيدمي يديه ورجليه وربما أدمى وجهه أيضاً.

لا بأس مرأى منى يساوي أكثر من تلك الجراح.

وعزم على التنفيذ.

وراح يرقب موعد العرس بفارغ صبر ومديد اشتياق.

* * *

الليلة ليلة عرس منى المختار وكميل العواد.

وازدهت دار عادل المختار في ضهور الأشرفية في بيروت بالأنوار والأزهار.

والعرس سيتم في دار العروس.

ثم يغادر العروسان لبنان في سياحة طويلة إلى أوروبا.

وازدحم المدعوون في دار آل المختار على فرحة هانئة باسمة.

وأقامت أم العروس على ألم وشجن وحنين.

وجنحت بأفكارها إلى هناك. إلى السجن المظلم الجنبات حيث يحل زوجها: مسكين عادل: لو كان هنا لأفرح قلبه بعرس ابنته الحبيبة منى.

وفيما دلال تجنح بأفكارها التفتت من دون قصد إلى النافذة، فشاهدت وجهاً أشبه بالخيال يتمايل وراء الزجاج.

وذعرت: ماذا ترى؟... هذا هو وجه عادل. أيمكن هذا؟... مستحيل... مستحيل.

وكان عادل يقف وراء زجاج النافذة والأمطار تنسكب على جسده الواهي النحيل وعلى شعره الأبيض وثيابه الرثة البالية. والدماء تتدفق من يديه وعنقه ووجهه. والدموع تنسكب على خديه.

ووقفت دلال، وهمّت بالانطلاق إليه.

سترتمي بين ذراعيه وتدخل به إلى الدار وتعانقه أمام الجميع وتصرخ: هذا هو زوجي الحبيب.

وقبل أن تسير، تعالى أزيز الرصاص في الخارج.

وأسرع الجميع إلى خارج الدار ليشاهدوا رجال الأمن يصرخون: قف... قف... قف أيها السجين الفار.

وحاول الرجل الكهل المحدودب الظهر، الأبيض الشعر، النحيل، الأصفر اللون، الواهي العزم، الهرب. إلا أن رجال الأمن استأنفوا إطلاق الرصاص.

وأسرعت العروس بثياب العرس لتشاهد الرجل وتقف قرب أمها وقرب شقيقيها سمير وبشير تتمتم: مسكين...

وكان الكهل ينظر إليها، ويكاد يلتهمها بعينيه الدامعتين.

وكان حائراً مضطرباً قلقاً.

يحاول الهرب، ثم يقترب من العروس، ثم يتقدم نحو شقيقيها سمير وبشير، وهو يبكي.

وعاد الرصاص إلى العربدة.

واستقرت رصاصة في ظهره فهوى على الأرض يتخبط بدمه.

وتقدم رجال الأمن ليشاهدوا والدة العروس تبكي.

فسألوها: هل تعرفين هذا الرجل يا سيدتي؟

وكادت تقول لهم: أجل، أجل إنه زوجي.

إلا أن عادلاً نظر إليها وأومأ برأسه مشيراً إليها بأن تجيب: لا . . .

وأجابت دلال: لا . . .

وخرجت الكلمة من بين شفتيها مخنوقة مجروحة دامية.

وضمت ابنتها العروس إلى صدرها وهي تبكي وتتمتم: لا، لا، لا، لا أعرفه، لا أعرفه.

وتمتمت العروس: مسكين. . . مسكين. . .

وتمتم سمير: قتلوه. . . يا للبائس التعس.

وهمس بشير: حرام. . .

وأدمعت العيون، عيون الأولاد، من دون أن يعلموا أن الكهل المجندل والدهم.

فكأن العاطفة، عاطفة الروح، هي التي بكت في عيونهم.

وتمتم عادل المختار وهو يحتضر: الحمد لله لقد رأيتهم قبل أن أموت.

وفيما تفيض روح السجين الفار بين أيدي رجال الأمن، كانت الأفراح تدور في داره.

وكان المغنون والراقصون يفرحون بالعرس البهيج.

وكانت ثمة عينان تذرفان الدموع.

إنهما عينا زوجته المخلصة الوفية دلال.

عودة الربيع

الفصل الأول

حلب الشهباء على بهجة وفرحة وانطلاق. تظللها الأشجار المثمرة، وتحيط بها البساتين لتغمرها بالعطر والعبير.

وتخلع عليها الأشجار المثقلة بالأزهار والأثمار نسائمها المتضوعة بالأريج.

وتغرق حلب في مواكب الزهور والعطور. وتنتشي بالألحان الشجية تطلقها الطيور. وتسكر بخمرة الهوى والحنين.

ويغفو أبناؤها الميامين في حضن الطبيعة الهادئة الساجية يحلمون أحلام الحب والجمال. . .

وهناك في ضواحي حلب الشهباء، بين الهضاب والتلال والبطاح الغارقة في البساتين كأنها عروس حسناء تغرق ليلة عرسها في سريرها الوثير، هناك في المزارع المنثورة في ضواحي الشهباء على فتنة وارتياح، هناك بين البساتين تحت شجرة من الفستق

خضراء بلون الأمل جلس اثنان: شاب في عمر الزهور، وفتاة في ندى الرياحين.

وغمرهما القمر بنوره الفضي الرحيب.

ولفهما الليل بنسماته ونجومه وهدوئه وعبيره.

وألقت الفتاة برأسها الجميل على صدر الفتى. ونظرت إلى الفضاء البعيد، لتهمس على رقة وحنان: «منير!... هل ترى هذا الفضاء الواسع الرحيب؟... هل تراه يا منير؟ إن حبي إياك لأبعد اتساعاً وأشد رحابة منه... حبي إياك لا يحده بصر ولا يدركه فكر يا حبيبي. إنه واسع رحيب بعيد عميق خالد. أحبك يا منير أحبك وأستميت في حبك وهواك...

وأغمضت عينيها، وهي تهمس كلماتها، كلمات الحب والهوى والغرام.

وتمتم منير، وهو لا ينفك ينظر إلى الفضاء: سامية!... هل تشاهدين هذا القمر المتبختر على مسرح الفضاء؟... إن حبي معلق في الفضاء مثل هذا القمر يا سامية. يطوق السماء على غير هدى، ويلتفت حوله ليرى فراغاً عميقاً ومصيراً مجهول القرار. حبي إياك بلا أمل. حب يسير إلى الكارثة، إلى الهاوية على سرعة وانطلاق. كلما أغمضت عيني لأنام تراءت لي النهاية المرعبة المخيفة يا سامية، تراءى لي الفراق بشبحه الرهيب المرعب المخيف. وإذا ما دهمني الكرى حلمت بالبعاد، وكأنه كابوس

يجثم على صدري ليحرمني لذة الحياة... إنني أخاف الفراق، أخاف البعاد، أخاف الانسلاخ، وقد أيقنت أن الفراق هو نهاية الطريق الذي نسير فيه على هوى وغرام...

والتصقت سامية عدلي بحبيبها منير العباس، وضمته إلى صدرها، لتهمس: «منير!... ليس للإنسان أن يتنبأ بما سيكون. ليس لنا أن ننظر إلى الغد، ونحن نجهل ما يخبئ لنا الغد. علينا أن نكتفي بيومنا. الإنسان لا يملك من أيام عمره إلا يومه. اليوم لنا. اليوم فقط. أما الأمس فهو ليس لنا، وقد ولّى وانقضى، والغد ليس لنا أيضاً، وهو لم يبزغ بعد.

قال والدموع تترقرق في عينيه: إن الغد يلوح لنا من بعيد، إما مبتسماً وإما مكفهراً دامع العين. قبل أن يطل الغد تفوح رائحته في أنوفنا، نحن لا نعيش بيومنا يا سامية، لا، بل نحن نعيش بأمسنا في ذكرياتنا، وبغدنا في أمانينا وأحلامنا. فإذا أضعنا الأمس، إذا أضعنا ذكرياتنا، أصبحنا أمواتاً، وإذا فقدنا الغد، إذا فقدنا آمالنا، أصبحنا هباء منثوراً بين أيدي الرياح. علينا أن نحيا بأمسنا، بذكريات أمسنا، كما علينا أن نعيش بغدنا، بأحلام غدنا وأمانيه. أما اليوم فلا نستطيع أن نعيش فيه لأنه لأعمالنا وأشغالنا.

فابتسمت سامية محاولة تبديد هواجس حبيب القلب والروح.

وهمست: منير!... دعك من هذه الأوهام. دعك من التفكير بما سيكون. الله أراد لنا السعادة والهناء. فلماذا تريد أن

تنغص هناءنا بهواجسك؟. . . لماذا تريد أن تغمر سعادتنا بضباب التشاؤم والأوهام؟ نحن الآن نعيش معاً. أنت قربي، وأنا قربك، فلماذا تريد أن تنغص هذا اللقاء في التفكير بالغد البعيد البعيد يا منير؟. . . دعني أسعد قربك، دعني أنعم بهذا اللقاء العذب الجميل. دعني أفني عمري بين يديك يا حبيبي يا منير. . .

وشدّت يدها يده وهمست: أحبك، أحبك يا منير.

وابتسم منير ابتسامة واهية كالأمل صفراء كأوراق الخريف.

وهمس: سامية. . . نحن الآن مخدرون، الغرام بث التخدير فينا. علينا أن نكون واقعيين. الواقع هو كل شيء في الحياة. إلى أين يقودنا هذا الحب يا سامية؟ إنه ليقودنا إلى الوحدة العميقة، إلى العذاب والبؤس والألم والشقاء.

فاستأنفت الابتسام لتقول: لا تخف، لن يقودنا إلى سوى السعادة والهناء.

فاتسعت ابتسامته الصفراء، وكأنه لا يؤمن بما تقول.

واستأنفت سامية الكلام لتقول: سنتزوج، ونعيش معاً عيش الأزواج السعداء. سنكون من أسعد السعداء بين الأزواج يا منير.

فانتفض منير. . . وانسلخ عنها.

وابتعد، وهو يخفي وجهه براحتيه.

وتمتم: مستحيل، مستحيل، مستحيل.

قالت وقد لحقت به وتعلقت بصدره: ليس ثمة أمر مستحيل في الحياة يا حياة سامية.

قال: سامية. لا تقودي منيراً إلى ارتكاب الجريمة.

قالت: وأين هي الجريمة يا منير؟. . . أتعد زواجك من حبيبتك سامية جريمة؟

قال: الجريمة كل الجريمة هي في زواج الخادم من السيدة. أنا خادم وأنت سيدتي. كيف تريدين أن يتم الزواج بيننا يا سامية كيف؟. . . ماذا سيقول أهلك فيك وقد تزوجت من خادم والدك منير العباس؟. . . ماذا ستقول صديقاتك؟. . . ماذا سيقول أصدقاؤك ومعارفك يا سامية؟ لا، لا، لا، لن نتزوج، علينا أن نفترق الآن. الآن وليس غداً.

واستأنف الابتعاد عنها. واستأنفت اللحاق به. وأدركته. ووقفت قربه تمسك يده هامسة: منير، لا تكن مجنوناً يا حبيبي. ليس بين المحبين غني وفقير، ليس ثمة مقام بين حبيب وحبيبة، الحب لا يعرف المقامات، ولا يتعرف إلى الذهب. أنت عندي الدنيا بأسرها يا منير، إذا فقدتك فقدت الدنيا، فقدت كل شيء. لا تحرمني منك، لا تحرمني من حبك يا حبيبي. رحماك لا تبتعد عني. إني أحبك، أحبك، أحبك يا حياتي.

وجذبته إليها وأبت أن تنسلخ عنه.

أبت أن تبتعد عن صدره، فعمدت إلى الالتصاق به على هوى واشتياق وهمست في أذنه: تعال نهرب الآن. الآن وليس غداً. خذني إلى حيث تشاء. طر بي إلى حيث تريد يا منير. لا تخف لن نموت من الجوع، معي من المال ما يكفينا طيلة العمر.

قال: لا. لن أهرب بك كاللصوص المجرمين، لا، لن أخون والدك سيدي سليمان بك. إن والدك أنقذني من الموت جوعاً في سنوات الحرب الضروس، أنقذني من التشرد والبؤس والشقاء بعد أن مات والدي وقضت والدتي، وأصبحت وحيداً في هذه الحياة، أتريدينني أن أكفر بنعمته وأخونه في شرفه وأطعنه في الصميم؟

فابتسمت وهمست: أين هي الخيانة؟... أنا أطلب منك أن تختطفني وتطير بي إلى أقاصي الأرض. إن يكن ثمة من جريمة فأنا هي «بطلتها». أنا المجرمة لا أنت. لا تقل لا... لا ترفض طلبي. أنا أريد أن أهرب وإياك. أريد أن أبتعد عن هذا الجو الموبوء الذي أعيش فيه يا منير. فأنا لا أطيق العيش بين جدران هذا القصر. لا أطيق الحياة هنا في قصر والدي، وتحت رحمة أخي. منذ أن توفيت والدتي، منذ أن رحلت أمي عن هذه الحياة، منذ ثلاث سنوات وأنا أعيش في العذاب. ليس ثمة من يحبني ولا من يعطف علي يا منير، والدي منصرف إلى جمع الذهب وتكديسه في الصناديق. وأخي رياض منصرف إلى اللهو والسكر والعربدة والمقامرة والمجون. ما يجمعه والدي بالقرش ينفقه أخي بالألوف. الاثنان في شغل عني، أنا لا أطيق العيش قربهما يا منير. رحماك أنقذني. أنقذني مما أنا فيه.

قال: سامية!... لا تدفعيني بيدك إلى الوهدة العميقة. لماذا تريدين أن أخون سيدي سليمان بك؟... لقد كان والدك ولا يزال

ذلك السيد العطوف الرحيم. إنه لدي في مقام والدي، وقد حرمت حب ذلك الوالد وعطفه، وأنا في المهد. فكان لي والدك نعم الوالد المحب الكريم. لقد كان والدي خادماً، كان فلاحاً في هذه المزرعة التي يملكها والدك سليمان بك. وعندما مات والدي جاء والدك إلى والدتي يقول: «لا تحملي الهم على منكبيك يا أم منير. إن يكن أبو منير قد رحل عن هذه الفانية، فأنا هنا في مقام أبي منير. أنت ستكونين عندي في مقام الأخت، وابنك منير سيكون في مقام ابني رياض».

هذا ما قاله والدك لأمي يا سامية، وهذا ما ردّدته أمي على مسامعي مراراً عديدة. وبرّ والدك بوعده فكان لأمي نعم الشقيق، وكان لي نعم الوالد الكريم. فأنفق على تعليمي وعلى تربيتي، وخصّني بعطفه وبحنانه. ويوم توفيت والدتي جاء إلي ليقول: «لا تخف يا ابني. إن تكن أمك قد رحلت فأنت ستلقى عندي كل عطف وحنان. سأعهد إليك في تدبير أمور مزرعتي وبساتيني. ستكون وكيل أملاكي. سأطلق يدك في كل أعمالي وأموري». ومنذ ذلك اليوم تسلمت أمور المزرعة ومهام البساتين... ورأيتك فأعجبت بك، وأحببتك. أحببتك منذ النظرة الأولى، إلا أنني لم أجرؤ على البوح بما في القلب، وأنا لا أجهل أي فرق شاسع بيني وبينك. لقد خيل إلي أنني أفكر بالمستحيل، وأنا أفكر بالاستيلاء على قلبك الحنون. ورأيتك تبتسمين لي. فخيل إلي أنك تهزئين بي، خيل إلي أنك تضحكين مني، فركنت للفرار، وقد وددت

يومذاك أن تعودي إلى المعهد العالي في دمشق، حيث كنتِ، كي أبتعد عنك، فلا أراك، ولا ترين لي وجهاً. إلا أن الأقدار أبت أن تبعدك عني وأن تبعدني عنك. فحللت هنا في هذه المزرعة. وبدأ الحب ينسج وشاحه الجميل حول قلبينا. كيف أحببتك؟... كيف بحت لك بحبي؟... وكيف تجرأت على أن أرفع نظري إليك؟... لست أدري، لست أدري يا سامية.

فأمسكت سامية عدلي يد حبيبها منير لتهمس: أتريد أن أكمل لك رواية القصة؟...

اسمع: كنت يوم عدت من المعهد في دمشق إلى هنا أحلم بالحرية، الحرية التي حرمت منها طيلة إقامتي في المعهد. كنت أريد أن أبسط جناحي وأطير، كنت أريد أن أتمتع بالحرية التامة الشاسعة الرحبة ولم أكن أحلم بالحب، وأنا أجهل ما هو الحب. ورأيتك. فشعرت بقشعريرة رهيبة تسري في دمي. وخفت، مم خفت؟... ولماذا خفت؟... لست أدري. وكنت أشعر بقوة هائلة تدفعني إليك يا منير. كنت أريد أن أجتمع بك، أن أخلو بك، أن أظل قربك فلا أبتعد عنك. وبدأت أسعى للاجتماع بك، إلا أنك كنت تتعمد الهرب مني. وذات يوم شاهدتك تقلم الأشجار، شاهدتك من بعيد، فألقيت بنفسي فوق الصخور ثم رحت أستنجد وأستغيث... وسمعتَ استغاثتي، فأسرعت إليّ، وتظاهرت بالإغماء فحملتني بين يديك وسرت بي... وشعرت بأنفاسك العطرة تهب على وجهي وعنقي وشعري، فوددت لو

تطول الطريق، وأنا أجهل إلى أين تسير بي. ورأيتك تسرع بي إلى غرفتك الصغيرة الجاثمة هناك، هناك في آخر المزرعة، فارتحت وأيقنت أن خطتي سائرة إلى النجاح. ودخلتَ بي إلى غرفتك، وأنا أتظاهر بالإغماء، وألقيتني فوق سريرك. وانصرفت لتحضر لي المنعشات تنعشني بها، واغتنمتها فرصة سانحة فتعمدت إسقاط ثوبي عن ركبتي. كنت أريد أن أثير عاطفتك، إلا أنني أخفقت، فقد عدت أنت بعد قليل، وشاهدت ركبتي تطلان من تحت ثوبي الممزق، فرفعت الثوب تخفيهما عن عينيك، وقد خيل إليك أنني غارقة في الإغماء. وانصرفت إلى الاهتمام بي. فأخذت تعمل على إسعافي بالكحول وبالمنعشات. وفتحت عيني وأنا أتمتم: «ماذا حدث؟...» وشاهدتك تجلس قربي على السرير مبتسماً ابتسامتك الحلوة الهادئة السمحاء وهمستَ: «أنتِ هنا في غرفتي»، فتظاهرت بالغضب.

وتمتمت: «من جاء بي إلى غرفتك؟» قلت «أنا...» قلت: «أنت؟... ولماذا تحملني إلى غرفتك؟...» قلت والابتسامة لا تفارق شفتيك: «الحمد لله على سلامتك يا سيدتي. لقد وقعت فوق الصخور وأصبت بالإغماء فحملتك إلى هنا لأسعفك بالمنعشات». فأدركت أن الحيلة جازت عليك. وهمست: «شكراً شكراً يا منير». قلت أنت: «ليس ثمة ما يدعو إلى الشكر يا سيدتي وأنا لم أقم بسوى ما يدعوني الواجب إليه». ومضينا في الحديث فسألتك عن حالك وأعمالك... وتأصلت عرى الصداقة بيننا منذ

ذلك اليوم. ثم بدأت صداقتنا تتحول إلى عاطفة والعاطفة انقلبت إلى حب والحب أصبح لاهباً مخيفاً. . .».

ونظرت سامية عدلي إلى القمر المتبختر على مسرح الفضاء لتكمل.

فتقول: «أنا ما زلت أذكر كل هذا. . . ما زلت أذكر القبلة الأولى. أتذكر يا منير؟. . . كنت أنت هناك هناك في آخر بستان الفستق عند الصخر الكبير. وكانت الشمس تلهب الأرض بنورها ونارها. وجلست وإياك تحت الشجرة الوارفة عند أقدام الصخرة العاتية الناتئة المتمردة. وصمتنا بعد حديث طويل. فلا أنت تكلمت، ولا أنا. وطال صمتنا. وكنت أنا أفكر بك. كنت أريد أن أبوح لك بما في قلبي. إلا أنني كنت على خجل سحيق بعيد رحيب الجناح. كانت الكلمات تثب إلى لساني لتتحطم على شفتي. وهممت بأن أنطق بكلمة، بكلمة واحدة فقط «أحبك» إلا أن تلك الكلمة تحطمت أيضاً على شفتي، وقد التقت عيناي بعينيك. واختلجت تحت بريق عينيك، وأخذت أرتجف، وقد أدركت أن الرغبة التي تعصف بي هي الرغبة التي تعصف بك نفسها. ورأيت رغبتك تطل من عينيك فيحاول الخجل أن يخفيها ويبعدها عني. وأيقنت أن خجلك مني، من سيدتك، سيحول دون أمنيتك التي هي أمنيتي. وخشيت أن تضيع الفرصة منك. منك؟. . . لا، مني ومنك، فأمسكت يدك أشدها وأرفعها إلى وجهي. وحاولت أنت الإفلات، حاولت الابتعاد عني، أتذكر يا

منير؟. . . إلا أنني تعلقت بك وضممتك إلى صدري وقد أبيت أن أنسلخ عنك. وشاهدتك تغمض عينيك فأغمضت عيني. وإذا بالشفاه الأربع تلتقي في كلمة واحدة «أحبك. . . أحبك». إنني ما زلت أذكر كل شيء كل شيء، يا منير، أنا أعيش بالذكريات. وسأظل على ذكرياتي الهانئة الوارفة الظلال.

فضمها منير إلى صدره بقوة، وكأنه يريد أن يحتفظ بها، كأنه يخشى أن تفلت منه وتهرب.

وهمس: سامية! لقد قلت لك، نحن لا نملك من حياتنا إلا الذكريات. وسنحيا بذكرياتنا العذاب يا سامية.

قالت: بل نحن سنحيا معاً. أنا وأنت، في دار واحدة. نذكر معاً ماضينا الآفل الجميل، ونرقب معاً المستقبل الآتي بعين المنى والأحلام. قلت لك، لن أبتعد عنك إلا لأذهب إلى القبر.

قال بألم: سامية إنَّ هدفي الأوحد في الحياة هو أن أعيش قربك. أغمض عيني على وجهك في المساء، وأفتحهما على وجهك في الصباح. هذا كل ما يريد منير العباس يا سامية. إلا أنني أدرك أنني لن أصل إلى هدفي، وهدفي بعيد المنال. أنا لن أعيش قربك. بهذا حدثني قلبي. ولم يكن هذا القلب ليخطئ في ما يحدثني به. إن الأيام تقف بيننا، الأقدار تبعدنا الواحد عن الآخر. أنت فوق على القمة العالية وأنا تحت، تحت في الوادي العميق السحيق يا سامية. لا أنت تستطيعين الانحدار إلى تحت ولا

أنا أستطيع التسلق إلى فوق. إن الفراق ينتظرنا ليغمرنا بأجنحته الرهيبة. إن لم يكن اليوم، فغداً، وإذا لم يكن غداً فبعد غد.

قالت بحزم: لن نفترق يا منير، ثق أننا لن نفترق إلى الأبد يا حياة سامية.

وضمته إلى صدرها.

وهمست في أذنه: ها الليل قد أشرف على الأفول. انظر! انظر إلى مواكب الفجر تستعد للمعركة. إنها معركة رهيبة معركة النور والظلام. معركة الليل والفجر. بعد قليل ستندحر جيوش الليل وتتقهقر، تاركة السبيل أمام جيوش الفجر البعيد. قم يا حبيبي، قم يا منير لنعود، أنت إلى غرفتك، وأنا إلى دارنا. وصلْ معي إلى الله كي يقرب ذلك اليوم، اليوم الذي أستطيع أن ألقي برأسي إلى صدرك العامر وأغفو طيلة النهار والليل...

ونهض منير العباس يودع حبيبته، هامساً في أذنها: «الوداع يا سامية، الوداع يا حبيبتي».

فهمست: لا تقل الوداع يا منير. بل قل إلى الغد. غداً سنجتمع هنا. هنا تحت هذه الشجرة الوارفة الظلال يا منير. ستوافيني إلى هنا مثل كل ليلة، عند منتصف الليل، فنسهر معاً حتى مطلع الفجر البعيد.

وعانقها. وضمها إلى قلبه بشوق وحنان.

وانسلخا عن بعض، وخيوط الفجر تنسج ثوب الصباح الفضفاض المنير.

الفصل الثاني

أقام منير العباس على قلق واضطراب. حبه يعذبه ويؤلم روحه ويضني فؤاده الطري.

ليته لم يحب، إذن لكان بألف خير.

أو بالأحرى، ليته أحب فتاة مثله. من وزنه وفي مقامه.

إذن لارتاح مما هو فيه.

أما وهو يحب ابنة مولاه، فحبه مؤلم مضن مخيف.

هواه المجنون سيقوده إلى الهاوية.

سيقذف به إلى النار.

لن يستطيع أن ينعم طويلاً بهواه.

لن يستطيع أن يبتسم، وهناك الفراق يلوح لعينيه في يقظته ومنامه...

وانصرف منير العباس إلى العمل في بستان الفستق، وهو يفكر على هواجس واضطراب.

كان يثخن الأرض بالجراح، وهو يفكر بحبيبته سامية:

ماذا سيكون مصيرها ومصيره؟ أي مستقبل قاتم اللون أسود الوجه مكفهر الجبين ينتظرهما؟

وأمعن في التفكير.

ولاح له المستقبل المخيف من خلال ذكرياته فارتعدت فرائصه.

ومر به سيده سليمان بك، والد سامية، فوقف يحييه: نهارك سعيد يا سيدي البك.

وردّ سليمان بك التحية: نهارك سعيد يا ابني.

والتفت سليمان بك إلى منير، وقد لمس فيه القلق والاضطراب ليقول: ما بك يا منير أراك على هم وعياء؟... أتكون مريضاً يا ابني؟...

وكاد منير العباس ينفجر، كاد يبوح بما في قلبه، كاد يقول لمولاه: «أجل أنا مريض يا سيدي، مريض بداء الهوى والغرام. ودوائي الوحيد ابنتكم سامية. هي دائي ودوائي.»

إلا أنه خشي العاقبة.

ماذا سيكون موقف سليمان بك، وقد علم أن خادمه مغرم بابنته؟

لا، لا، مستحيل، مستحيل، لن يبوح بحبه لأحد، لا لوالد سامية ولا لغير والد سامية.

حبه يجب أن يموت، أن يُصرع، أن يُخنق.

عليه أن يستفيق من الحلم الجميل.

الحلم الذي يبعده عن حقيقته، ويحلق به في فضاء الوهم والخيال.

وتمتم على مسامع سيده: لا يا سيدي، أنا لست مريضاً. إنني بألف خير من خيرك العميم.

وسار سيلمان بك في سبيله، يتفقد أشجار البستان.

وعاد منير العباس إلى العمل المتواصل الشاق البعيد، وإلى تفكيره العميق السحيق.

وبعد قليل أقبل نجل سيده رياض، شقيق سامية.

وكان رياض على تمرد وكبرياء.

كان ينظر إليه، إلى منير، نظرات الهزء والاحتقار.

لم يناده بسوى: «يا ولد...» في حين أنه في عمره.

كان منير في الخامسة والعشرين، وكان رياض في ما يقارب الثلاثين من عمره.

وكان منير يبتسم وابن سيد يناديه: يا ولد.

ويسرع إليه مبتسماً ليقول: ماذا يأمر سيدي البك؟

ويصدر سيده البك أوامره.

فيمتثل منير إلى تلك الأوامر.

وينفذها بحذافيرها من دون تذمر ولا تردد.

هذا الشاب هو شقيق سامية. وعليه أن يقوم بخدمته.

إن لم يكن من أجله فمن أجل سامية على الأقل.

واقترب رياض من منير على كبرياء وشموخ ليقول: ما بك يا ولد؟ أراك تعمل وكأنك تعمل مسخَراً من دون أجرة، هكذا لوجه الله الكريم. أسرع في العمل، أسرع.

وعاد إلى الاقتراب منه، والغضب يطل من عينيه وينضح من كلماته المتدفقة من بين شفتيه كأنها الحراب والرماح.

وتمتم بتذمر: أهكذا تعمل؟... انظر، هذه الشجرة ما زالت من دون تقليم.

فهمس منير: إنك على خطأ يا سيدي. أنا قلمتها أمس بيدي.

وهدر رياض: أأكون كاذباً أيها الوقح؟... أنا أقول لك إنها من دون تقليم. أسرع إلى تقليمها من دون أن تبدي أي اعتراض.

وسكت منير على مضض.

وكان بوده أن يكابر ويعاند.

إلا أنه تذكر سامية. حبيبته سامية. إنها شقيقة رياض. سيسكت، لن يرد بوجهه إكراماً لعينيها الحلوتين.

وانصرف رياض عدلي على كبرياء وشموخ.

وعاد منير لينغمس في العمل والتفكير.

وكأن ما حدث بينه وبين ابن مولاه أعاده إلى حقيقته.

إنه خادم...

فلاح في مزرعة والد سامية.

هل يحق له أن يتطاول إلى ابنة مولاه؟...

أيجوز له أن يتزوج من ابنة سيده؟...

لا. لا هذا ما لا يجوز.

وطال تفكيره، وهو يعمل في حراثة البستان وتقليم الأشجار.

وعزم أخيراً بعد تفكير طويل، على الانقطاع عن سامية.

لن يوافيها كل ليلة إلى البستان، ولن يجتمع بها بعد الآن.

ما له ولها؟..

عليه أن يهرب منها قبل أن يتفاقم الخطر ويجرفه التيار إلى اللجة العميقة الغور المجهولة القرار.

ولكن، هل يستطيع أن يبتعد عن حبيبته سامية؟

هل يستطيع أن ينقطع عنها، وهي من جسده الروح، ومن روحه السعادة والهناء؟

لا، من المؤكد أنه لن يستطيع تحقيق ما عزم عليه.

لن يستطيع أن يقهر قلبه، ولا أن يرتاح من حبه وغرامه.

ورأى أن يتذرع بقوة الإرادة...

عليه أن يتخذ من إرادته سلاحاً يحارب به ثورة القلب وتمرد الجسد.

وتوصل إلى اتخاذ القرار الحاسم: لن يوافي سامية إلى البستان عند منتصف الليل، بل هو سيعتصم في غرفته في آخر البستان، لا يخرج منها، ولا يسمح لقلبه بالتمرد والعصيان.

وأحس بأنه على لهب، وهو يتخذ قراره الحاسم الرهيب.

وأغمض عينيه. وهمس مخاطباً ربه العظيم: «ساعدني يا إلهي على الانتصار»...

وانقضى النهار... وأقبل الليل...

فآوى منير العباس إلى غرفته المتواضعة في البستان. وعزم على أن ينفذ ما رسم.

لن يوافي سامية إلى البستان، مثله كل ليلة. بل هو سيعتصم في غرفته حتى مطلع الفجر.

وبدأت الساعة تقترب من الثانية عشرة، من منتصف الليل.

وبدأت الهواجس تغزو رأس منير.

كان في حرب طاحنة دامية بين عقله وقلبه.

قلبه يدعوه إلى الخروج، إلى موافاة الحبيبة القائمة منه على انتظار تحت شجرة الفستق الوارفة الظلال.

وعقله يردعه عن الخروج من الغرفة الصغيرة المظلمة السوداء.

وطالت الحرب بين العقل والقلب.

وكان القلب على ثورة لاهبة. كان يناضل ضد العقل ويجاهد.

فهو على اشتياق وحنين.

إنه يشتاق لقاء الحبيبة القائمة على انتظار.

أما العقل فكان على رصانة ووقار.

كان يريد الاعتصام بالصبر، ليس للقلب أن يتهور وينحدر إلى الوهدة العميقة الغور.

وكلما اقترب الليل من الانتصاف ازداد القلب قوة.

وكاد قلبه يتغلب على عقله، وقد أشرفت الساعة على الحادية عشرة والنصف.

وتمتم: «هل أذهب؟... هل أوافيها؟».

وهمس، وكأن قلبه هو الذي همس: «أجل يجب أن توافيها. ستكون على انتظار. لا تعذبها وتعذب نفسك يا منير».

وهمس عقله: «لا، لا تذهب. إياك أن تذهب. لماذا تحلم بالمستحيل؟... لماذا تنحدر إلى الوادي فتنزلق، وتنزلق هي معك. كن عاقلاً يا منير. ما لك ولها؟ لا هي لك ولا أنت لها. حبكما بلا أمل. أتعيشان من دون أمل؟».

ويعزم على عدم الذهاب.

إلا أن قلبه يعود إلى الثورة والعربدة: «يجب أن تذهب، يجب أن تذهب».

ودقت الساعة منتصف الليل. فبلغت ثورة قلبه الذروة العالية.

إلا أن عقله استطاع أن يصد الهجوم.

وأبى أن يغادر الغرفة.

وشعر القلب بالاندحار...

لقد انتصر العقل على القلب.

وظل منير في غرفته.

لم يخرج لموافاة حبيبة القلب والروح إلى الحديقة.

وارتمى منير على السرير المخلع الهزيل ليجهش بالبكاء...

ومضت الدقائق على سرعة وانطلاق.

ودقت الساعة الحادية بعد منتصف الليل، ومنير العباس منطرح على السرير يبلل الوسادة بدموعه الحمراء.

وإذا بوقع خطى سريعة تتعالى أمام الغرفة.

وأرهف منير أذنيه.

وتوقفت الخطوات أمام الباب.

وإذا بطرق يتعالى على الباب.

وتعالت نبضات قلبه.

وقفز إلى الباب يفتحه، وقد قفز قلبه أمامه على وله وجنون.

وإذا به أمام سامية وجهاً لوجه.

وارتمت على صدره وهي ترتجف، لتجهش بالبكاء.

وهمست، وهي تمسح دموعها بقميصه: منير!... الحمد لله. أنت بخير. لقد أقلق تأخرك عن الموعد المضروب خاطري. خيل إلي أنك مريض، أنك في خطر. منذ خمس سنوات ما تخلفت مرة واحدة عن موافاتي إلى الموعد. قل لي، لماذا تخلفت الليلة يا منير؟

وتمتم منير وهو يداعب شعرها الجميل: سامية!... لقد اتخذت قراراً. لن أعود عن قراري يا سامية.

قالت بفضول: ما هو قرارك؟...

قال: لن أوافيك بعد اليوم.

فذعرت.

وارتدت إلى الوراء لتهمس: هل مللت هواي؟... هل سئمت حبي يا منير؟

قال: مجنونة... أأمل هواك، وأنت مني القلب والروح؟... لا يا سامية أنا ما مللت هواك ولا سئمت حبك. إلا أن الواجب المقدس يدعوني إلى الابتعاد عنك.

فازدادت ذعراً.

وتمتمت: أي واجب هو هذا الواجب الذي يدعوك إلى الابتعاد؟... أتعلم ماذا يعني بعادك عني يا منير؟... إنه ليعني العذاب، الاحتراق، الموت... أجل، إنني لأفضل الموت ألف ألف مرة على البعاد عنك يا حبيبي خذ روحي، خذ حياتي، اقتلني، ولكن لا تبعد عني. رحماك لا تبعد عني يا منير.

وأجشهت بالبكاء.

وبدت في لوعة وأسى وعذاب.

فاقترب منير العباس منها يضمها إلى قلبه بوله وهيام ويتمتم: سامية!... لا تعذبيني وتعذبي نفسك يا حبيبتي. الفراق اليوم أفضل منه غداً، يجب أن نفترق. يجب أن نفترق يا سامية.

فطوقته بذراعيها وهمست: لا. لن نفترق.

قال: وماذا ستكون النهاية، نهاية حبنا الملتهب؟... ماذا سيكون مصيرنا؟... ماذا؟...

قالت: سنتزوج ونعيش معاً خذني، اختطفني، طر بي الآن، الآن، الآن. لن أخرج من هذه الغرفة إلا ويدي بيدك.

فوجم منير. وقال: ماذا سيكون موقف والدك وأخيك يا سامية؟

قالت: أنا لا يهمني أحد. لا أبي ولا أخي. يهمني أن أظل قربك أبد الدهر. ألا تحبني يا منير؟... ألا تريد أن نعيش معاً؟...

قال: هذه هي أمنيتي الوحيدة في الحياة يا سامية. ولكن هل يستطيع الإنسان أن يحقق جميع أحلامه وأمانيه على هذه الأرض؟

قالت: الإنسان قادر على كل شيء، شرط أن يريد. الإرادة البشرية قوة هائلة يا منير تجتاح في الإنسان كل رغباته وأحلامه وأمانيه. لا تقل «لا أستطيع»، بل قل «أريد». أنا أريد أن أظل قربك، وسأظل قربك إذا أراد الله.

قال: إذا هربت معك عمد والدك إلى الانتقام منك ومني. سيذبحنا، سيفتك بنا، سيعدمنا الحياة.

قالت بخبث ومكر ودهاء: أتخاف؟...

فابتسم وهمس: أخاف عليك لا على نفسي.

قالت: لا تخف. لن نقيم في هذه الديار. بل نحن سنغادرها إلى أقاصي الأرض.

قال، وقد بدأ يميل إلى الأخذ برأيها: إلى أين سنطير؟... إلى أين سنهرب؟...

قالت: إلى ما وراء البحار. سنسافر. بلاد الله واسعة. لن تضيق بنا على رحبها وسعتها.

فصمت. وبدا منه أنه يفكر.

واستأنفت سامية الكلام لتقول: سنغادر هذه البلاد إلى البرازيل أو الأرجنتين أو إلى المكسيك أو إلى أفريقيا، لك أن تختار البلاد التي سنشخص إليها.

قال بحزم وعزم: سنسافر إلى البرازيل. كانت أمي المرحومة تقول لي إن لها عمّا هناك. سنسافر إلى البرازيل يا سامية. قد يسعدني الحظ فألتقي بعم أمي. كانت أمي تحتفظ برسالة أرسلها لها منذ زهاء عشرين سنة. الرسالة ما زالت بين الصور والأوراق التي تركتها أمي في هذه الغرفة وهي تحمل عنوانه في البرازيل.

فابتسمت سامية على ارتياح، الحمد لله، لقد اقتنع منير أخيراً بصواب رأيها.

قالت: متى سنسافر؟...

قال: سنسافر بعد أسابيع قليلة. مهلاً ريثما أتدبر أمري قبل أن نخطو إلى خارج البلاد.

قالت: ليس لك أن تفكر بشيء. لدي من المال ما يكفينا العيش في بحبوحة عشرات السنين.

قال بكبرياء وشموخ: ابن العباس لم يتعود أن يستعين بأموال النساء على قضاء حاجته.

فابتسمت: أنا لن أكون غريبة عنك. سأكون زوجتك. أي فرق بين مالك ومالي؟

قال: لدي من المال ما يكفي نفقات السفر إلى البرازيل بحراً. سنسافر. وهناك أعمل وأكسب خبزي بعرق جبيني.

فضمته إلى صدرها وهي تهمس: علينا أن نسرع. خير البر عاجله يا منير.

قال: غداً سأشخص إلى بيروت فأشتري بطاقتي سفر إلى البرازيل بطاقة لي وبطاقة لك ونغادر هذه البلاد على متن الباخرة الأولى التي تمخر عباب البحر المتوسط إلى البرازيل.

وتهادت بين ذراعيه، وقد سكرت بخمرة الأحلام والأماني.

ستعيش قرب حبيب القلب والروح مدى الحياة، بعيدة عن كلام الناس وعيونهم وألسنتهم الحادة النصال.

ولم يفترقا إلا والفجر قد بدأ يخضب مقلة الليل السوداء بأنواره الزاهية البيضاء.

وفي اليوم التالي شخص منير العباس إلى بيروت باحثاً عن شركة سفر.

والشركات يومذاك قليلة العدد. والعام عام 1925. والانتداب الفرنسي في بدء سلطانه. والهجرة في مطلعها.

شباب البلدان الواقعة تحت الانتداب يهاجرون إلى أقاصي الأرض، وأبناء المنتدبين ينعمون بخيرات البلاد.

وتمكن منير العباس من الحصول على بطاقتي سفر من شركة أجنبية.

والشركات الأجنبية يومذاك تحتل من لبنان الصميم.

وأسرع بالعودة إلى حلب حاملاً البطاقتين، على فرحة رحبة وأمل بعيد.

وأسرع إلى حبيبته سامية، والبهجة تغمر روحه وتعصف بحناياه.

ولوّح لها بالبطاقتين.

وهمس: سامية!... بعد أسبوع، أسبوع واحد فقط سنغادر هذه البلاد إلى البرازيل، ونعيش معاً عيش الأحباب السعداء.

وارتمت بين ذراعيه.

وانهمرت الدموع، دموع الفرح من عيونهما.

وهمست الشفاه الأربع: «يا حبيبي»، «يا حبيبتي».

الفصل الثالث

انصرفت سامية عدلي إلى الاستعداد للسفر.

فأخذت تجمع ثيابها وحليها وجواهرها وأموالها استعداداً للرحيل.

وكانت على رهبة ووجوم.

كانت كئيبة، حزينة الفؤاد من دون أن تعلم سبب حزنها وكآبتها.

وخيل إليها أن البعاد عن وطنها وعن أهلها هو سبب حزنها.

وكادت تعدل عن الهرب مع منير. إلا أنها كانت على يقين من أنها لن تتمكن من العيش بعيدة عنه.

وجمعت ثيابها في ثلاث حقائب.

وأخفت حليها وجواهرها في حقيبة صغيرة.

ولم تنس أن تخفي الآلاف العشرين من الأوراق النقدية في الحقيبة الصغيرة مع المجوهرات.

وأقامت تنتظر انقضاء الأسبوع بفارغ صبر.

بعد أسبوع، أسبوع واحد فقط ستبسط جناحيها، وتطير في سماء الحرية الواسع الرحيب.

وراحت تغدق على والدها وعلى أخيها رياض العاطفة والحنين.

ودهش رياض، وقد لمس في شقيقته الانقلاب البعيد.

كانت تعيش في قصرهم وحيدة لا تخاطب أحداً ولا تتكلم إلى أحد.

وكانت حزينة الفؤاد.

كانت ناقمة عليه، لا تتورع عن قذفه بقوارص الكلام، فما بال حالها تنقلب فجأة.

وبدأ رياض يشك في نقاوة أخته، وقد رآها تجمع ثيابها.

وأعلن لوالده شكوكه وظنونه. فلم يأبه الوالد لتلك الشكوك، وهو يعرف ابنته طاهرة الذيل.

ورأى رياض أن يراقب سامية.

فانصرف إلى مراقبتها الليل والنهار.

وكان يراها في عمل دائم.

فهي حيناً في غرفتها، تنقل ثيابها من الخزائن إلى الحقائب. وتارة في غرفة المكتب تنصرف إلى تسطير الرسائل. وطوراً في البستان تتحدث إلى الفلاح منير العباس...

وبدأت الشكوك تتحول إلى يقين...

فأيقن أن هناك سراً وراء الانقلاب في تصرفات شقيقته...

وذات صباح، اغتنم فرصة غيابها عن القصر، فوثب إلى غرفتها يفتح الحقائب والأدراج.

ودهش، وهو يرى ثياب أخته في الحقائب. فكأنها عازمة على السفر.

وازدادت دهشته، وقد فتح الحقيبة الصغيرة لتبهر الجواهر والحلى عينيه...

واتسعت دهشته، وقد وقعت عيناه على ألوف الأوراق النقدية.

وهدر: يا للعينة. لقد طلبت إليها أن تسلفني مئة ليرة، فادعت أنها لا تملك ليرة واحدة.

ومد يده إلى المال يتناول منه حفنة يدسها في جيبه. ثم يستأنف التفتيش...

وفتح أحد أدراجها، ليجد رسالة.

ورفعها بين يديه ليقرأ: «إلى والدي الحبيب».

وفض الرسالة على عجل وقرأ فيها: «والدي الحبيب!... يعزّ علي أن أخرج من دارك على هذه الصورة... إنني مضطرة إلى مغادرة هذا القصر... هذا القصر؟... لا بل هذه البلاد بأسرها... أنا أحب منيراً العباس، الفلاحَ منيراً! لا تعجب يا والدي ولا تحزن. الحب لا يعرف المقامات ولا يتعرف إلى المال والذهب. كنت على يقين من أن رأيك غير رأيي، وأنا أعلم أنك

لن توافق على زواجي من منير. لذلك فقد هربت وإياه إلى خارج هذه البلاد... لا تخف على شرفي يا والدي... لن أدنسه، لن أمرغه في الوحول. سنتزوج ونعيش في بلاد الله الواسعة عيش الأزواج السعداء. عندما تصلكم هذه الرسالة أكون قد غادرت هذه البلاد فلا تبحثوا عني... أرجو الصفح يا والدي الحبيب. واسلموا لابنتكم المخلصة سامية».

وأخذ رياض يرتجف، وهو يقرأ تلك الرسالة. وهدر: يا للمجرمة اللعينة. الموت للعاهرة!

وحمل الرسالة وأسرع إلى والده يعرضها عليه.

وذعر الوالد المسكين.

وأحس بقشعريرة تجتاح دمه. أحس بقلبه ينهار وبأعصابه تخونه.

فاستلقى على مقعد وثير، وهو في حال نفسية مؤثرة مؤلمة.

وأخذ يرتجف من الغضب والخوف والوجل...

وأقام الاثنان، الوالد والولد، على انتظار. إنهما ينتظران عودة سامية:

الويل ثم الويل لها ساعة تلج عتبة الباب.

ولم يطل انتظارهما. فقد أقبلت سامية بعد قليل. واتجهت تواً إلى غرفتها، لتقف على ذعر.

كانت غرفتها مقلوبة رأساً على عقب. ثيابها ملقاة على الأرض، والحقائب كلها مفتوحة، وجواهرها وحليها مبعثرة...

واشتد بها الذعر، وقد بحثت عن الرسالة فلم تجدها.

وأيقنت أن أمرها فضح، وأن الكارثة وقعت.

ورأت أن تركن للفرار، فتهرب قبل أن تندلع النار وينفجر البركان.

وجمعت حليها وما بقي من المال. وحملتها وأسرعت محاولة الخروج من القصر.

إلا أنها وقفت عند عتبة الرتاج على ذعر واضطراب، وقد رأت والدها وشقيقها يقفان منتصبان أمامها على ثورة وجنون.

وتراجعت إلى الوراء على خوف شديد.

ولحق بها رياض، يمسك شعرها ويجرها ليلقي بها أمام والدها الغاضب، وينهال عليها بالضرب والرفس...

ولم تنبس سامية بحرف.

• لم تحتج ولم تعربد ولم تستغث ولم تستنجد.

بل هي اكتفت بالدموع الغزيرة تذرفها بألم وغصة وعذاب.

وكان والدها يقف قربها يشاهد ابنه في ثورته ولا يتحرك.

كان الوالد صامتاً كالصخر، واجماً، قلقاً.

لقد تحول غضبه الشديد إلى أسى ووجوم، وهو يشاهد ابنه

يضرب شقيقته بوحشية، في حين تذرف سامية الدموع ولا تنطق بحرف.

كانت سامية بين يدي رياض كالنعجة بين مخالب الذئب.

كانت كالحمل بين أنياب الأسد.

ولم يرتد رياض عنها إلا وقد أنهكه التعب وغرقت سامية في إغماء شديد.

وحملها والدها إلى غرفتها، يلقيها فوق السرير ويطلب إلى مربيتها وإلى بعض الخدم إسعافها وحراستها:

ـ الويل ثم الويل لكم إذا تمكنت سامية من الفرار! . . .

وأدرك الخدم أن سيدتهم ارتكبت جريمة، وأن والدها حكم عليها بالسجن. . .

ورثوا لحالها، وهم يحبونها ويحترمونها، ويكنون لها كل وفاء وإخلاص.

وانصرفت المربية، وهي امرأة فاضلة في العقد الخامس من العمر، كانت تحب سامية حباً شديداً وتعطف عليها وتحرص كل الحرص على سعادتها وهنائها، إلى إنعاشها.

وفتحت سامية عينيها بعد وقت طويل، لتنظر إلى الخدم الذين يحيطون بسريرها وتجهش بالبكاء. . .

وتقدمت المربية أم إبراهيم منها تضمها إلى صدرها بحنان،

وتهمس في أذنها: خففي عنك يا ابنتي. لا تبكي يا سامية. إن عين الله ساهرة ولن تغفل يوماً عن بني البشر.

فأخفت سامية رأسها في صدر أم إبراهيم وأجشهت بالبكاء. . .

ودعت أم إبراهيم الخدم إلى الخروج من غرفة سامية.

قالت: سيدتكم سامية بحاجة إلى الراحة. اخرجوا كلكم. اخرجوا.

وخرجوا والدموع في عيونهم.

كانوا يتألمون لألم سيدتهم الصغيرة، وهي التي كانت تعطف عليهم وتكرمهم وتهتم بشؤونهم.

وخلت أم إبراهيم بسامية. وهمست: ماذا حدث؟

قالت: كنت أحبه، أحبه أكثر مما أحب الحياة. وكنت على يقيمن من أن والدي لن يوافق على زواجي منه، فعزمت على الهرب معه إلى البرازيل. إلا أن والدي وشقيقي اكتشفا الأمر، فعمد رياض إلى ضربي. ظل يضربني إلى أن فقدت رشدي. . . أرجوك. أرجوك يا أم إبراهيم أن تمدي لي يد المساعدة. ليس لي سواك في هذه الحياة. أنت يا أم إبراهيم في مقام أمي، وأنا التي فقدت أمي منذ الصغر. ساعديني يا أم إبراهيم أرجوك ساعديني.

وأجشهت بالبكاء.

وأخفت رأسها في صدر أم إبراهيم، وهي تذرف الدموع الغزيرة.

وأشفقت المربية عليها.

وتمتمت: أنت ارتكبت هفوة كبيرة يا ابنتي. كان عليك أن تخبريني بسر غرامك قبل أن يفشى هذا السر. أما الآن وقد وقعت الواقعة فقد أصبح من الصعب مساعدتك.

قالت: أرجوك، أرجوك أن تذهبي إلى كوخ منير وتقولي له: إنني ما زلت أحبه ولا أزال على استعداد للهرب معه. إن لم يكن اليوم فغداً وإن لم يكن غداً فبعد غد.

قالت أم إبراهيم، وهي تكفكف دموع سامية: مهلاً سأتصل به يا ابنتي ولكن ليس الآن، والعيون مفتوحة علينا. سأتصل به بعد أيام قليلة. وأطلعه على كل ما تريدين.

قالت: ولكنني أخشى أن يسافر، أخشى أن ييأس. فيعمد إلى الابتعاد عني. إذا نأى منير عني لقيت حتفي يا أم إبراهيم أرجوك ساعديني.

قالت أم إبراهيم بعد تفكير: سأتصل به غداً. تشجعي. سأجمع بينكما وأساعدكما على الهرب.

وأسرعت أم إبراهيم تهيئ للفتاة الطعام والمنعشات.

وانصرفت إلى الاهتمام بها. وأخذت تعللها بالمساعدة وتبسط في سبيلها زهور الأماني ورياحين الأحلام والآمال...

وانقضى النهار...

وأقبل الليل بظلامه الدامس، يحمل طي جناحيه الوحدة الخرساء واليأس البعيد إلى قلب سامية الحزين.

ولم تنم سامية طيلة ذلك الليل...

حاولت النوم فما استطاعت إليه سبيلاً.

لم تستطع أن تغمض جفنيها.

لم تستطع أن تطرد الأوهام والأشباح عن تفكيرها.

لم تستطع أن تبعد اليأس عن قلبها... فظلت ساهرة في فراشها البارد حتى مطلع الفجر البعيد..

ونادت سامية أم إبراهيم إليها، وقد نشر الصباح وشاحه الأبيض الزاهي على الشهباء...

فأقبلت أم إبراهيم، والحزن بادٍ على وجهها.

وتمتمت سامية: أسرعي يا أم إبراهيم. أسرعي إلى منير.

قالت أم إبراهيم بأسى وألم: لم يعد ثمة أي فائدة من الذهاب إليه... لقد انتهى كل شيء. تشجعي يا ابنتي.

وذعرت سامية.

وزأرت: ماذا حدث؟... ماذا حدث؟...

قالت أم إبراهيم وقد جلست قربها على السرير: هجم الفلاحون بإيعاز من أخيك رياض على كوخ منير العباس فهدموه وانهالوا على منير بالضرب حتى كادوا أن يقضوا عليه... ومع مطلع الفجر، غادر منير الشهباء.

وشعرت سامية بالنار تلهب دمها.

شعرت بأن جسدها النحيل يختلج، وبأنفاسها تضيق في صدرها.

وحاولت البكاء. . .

حاولت ذرف الدموع، فتحجرت الدموع في عينيها.

وهوت فوق السرير لتغيب في إغماء بعيد المدى عميق القرار.

* * *

ومضت الأيام في سيرها السريع. . .

وكان كل يوم يمر يدفع بسامية عدلي خطوة إلى القبر.

فنحل جسدها، ومسح الحزن والأسى الجمال عن وجهها، وساءت صحتها. وانزوت في غرفتها في قصر أبيها تبكي حبها الضائع وأملها الصريع. . . وتقدم الكثيرون من شبان حلب طالبين يدها.

فردت الجميع على خيبة أمل.

وحاول والدها إقناعها بالزواج، فأخفق.

لم تكن لتلين ولا لتقتنع.

لقد أرادت أن تعيش الذكريات، ذكريات هواها وحبها وهيامها.

وكانت تزور تلك الأماكن التي طالما جلست فيها مع حبيبها منير العباس، تجلس فيها وحيدة تذرف الدموع وتناجي طيف الحبيب الممعن في النوى والبعاد. . .

ونقمت على والدها وعلى أخيها.

وانقطعت عن التحدث إليهما.

وكان والدها يحاول التودد إليها، يحاول استعادتها وقد أضاعها، يحاول إعادتها إلى صوابها، إلا أنه لم يفلح.

لم تكن سامية لترضى، ولا لتعفو، ولا لتعود إلى سابق بهجتها وهنائها. . .

وبدأت الهموم والمصائب والأحزان تضفر إكليل الشوك لتتوج به قلب الوالد المسكين.

لم يكفه مصابه بابنته، لم تكتفِ الأيام بإبعاده عن قلب ابنته، بل هي أمعنت في تعذيبه فأبعدت عنه قلب ابنه رياض.

ورياض كان ولداً شريراً، ولداً عاقاً يبذر أموال والده في النوادي والمراقص والملاهي الليلية وفي المواخير.

كان ينفق المال من دون حساب على السكر والعربدة والغواني.

وحاول والده حبس يده عنه، إلا أن الولد العاق عمد إلى الاحتيال حيناً، وإلى السرقة أحياناً، وإلى الاختلاس تارة، وإلى تهديد والده بالقتل طوراً. . . ولم يكتفِ الولد العاق بكل هذا بل هو عمد إلى الفرار مع راقصة حسناء بعد أن اختلس من صندوق والده مبلغاً كبيراً من المال.

وانقضت المصيبة على الوالد المسكين انقضاض الصاعقة. . .

هو لم يرض أن يزوج ابنته من منير العباس حرصاً منه على سمعة الأسرة وعلى كرامتها، فإذا بابنه، ابنه الذي ضرب أخته وكاد

يقتلها لأنها فكرت بالزواج من الفلاح، يعمد إلى الزواج من راقصة متهتكة . . .

ولم يستطع الوالد البائس احتمال المصاب فأصيب بالشلل . . .

وذعرت سامية وهي تشاهد والدها يقع أمامها مشلول اليد والرجل واللسان . . .

وانصرفت إلى تمريضه وإلى الاهتمام به، محاولة إنقاذه من براثن الموت، إلا أنها لم تستطع أن تدفع الموت عنه.

فقضى والدها ذات ليلة من ليالي كانون البارد القارس العاصف، الزاخر بالأمطار.

وبكت سامية الوالد الراحل بدموع حمراء.

وأيقنت أنها خسرت ركناً متيناً كانت تستند إليه في الحياة، وقد نسيت، أو تناست ما كان منه فيها، وهو الذي نغص عليها الحياة، وحرمها من حبيبها منير العباس.

لم تفكر سامية وهي ترى والدها جثة هامدة ممددة على فراش الموت إلا بالأبوة وبالحنان الوالدي.

لقد خسرت أمها، وهي تخسر والدها الآن. لم يعد لها في هذه الحياة إلا الأخ.

وأي أخ هو ذلك الأخ؟

إنه أخ جاهل فاسق شرير . . .

وكان عليها أن تعلم أخاها بموت والدها.

وبدأ الخدم والأهل والأقارب والأصدقاء البحث عن رياض، إلا أنهم لم يعثروا له على أثر.

ودفن الوالد من دون أن يلقي الابن على الجثة النظرة الأخيرة.

وانزوت سامية في القصر الكئيب الحزين تبكي الوالد الراحل كما بكت من قبل الحب الصريع . . .

وذات يوم، بعد مضي أشهر عدّة على موت الوالد، انتصب شقيقها رياض أمامها كصوت القدر ليقول: جئت لأستلم ميراثي من أبي.

ودهشت سامية لموقف الشقيق العائد بعد طول الغياب، لا ليبكي أباه، ولا ليعزيها، ولا ليشاطرها الأسى، بل ليستلم ميراث والده . . .

وثارت سامية. وصرخت في وجهه: اخرج من هنا. اخرج من هذا القصر أيها النذل. ما كان والدك ليموت لو لم ينكب بك. أنت سبب موت والدي. اخرج . . . اخرج.

ولم يخرج من القصر، بل هو جلس على مقعد وثير ليقهقه ويقول: هذا القصر هو قصري. إذا كان لا بد من أن يخرج أحدنا، فأنت هي التي ستخرج لا أنا.

وذعرت وصرخت: أتطردني؟

قال: إنني أرد لك الجميل. طرقت الباب فاسمعي الجواب.

قالت: ماذا تريد؟

قال: أريد أن أضع يدي على ميراث أبي.

قالت: لقد أنفقت من مال أبيك أكثر مما تستحق.

قال: إذا شئت أن تحاسبيني فتفضلي إلى المحاكم.

وكان يخاطبها بلهجة الأبناء الأشرار.

ورأت أن تتقي شره.

فقالت: يجب أن نقتسم الميراث... لك حصتك ولي حصتي.

قال: بمثل هذا يتكلم الأذكياء.

قالت: أترضى بعمنا رضوان حكماً؟

قال: أرضى.

وجاء عمهما رضوان، واقتسم بينهما الميراث...

وباعوا كل شيء: المزرعة والقصر والبستان.

وتسلم رياض حصته من المال، وهو مبلغ كبير وفير، وأسرع بالعودة إلى المواخير والملاهي والمراقص والخمر والسكر والعربدة والمقامرة والنساء.

وأقامت سامية في دار متواضعة هادئة في حلب لتعيش عيشاً هادئاً صامتاً كئيباً...

ومضت الأيام...

وانقطعت عنها أخبار رياض.

فلم تسمع عنه شيئاً...

وذات يوم، فيما تطالع صحف الصباح، وقدح بصرها على صورة أخيها...

وذعرت وهي تقرأ ما كتب تحت الصورة: «رياض عدلي يفتك بعشيقته».

وطفرت الدمعة من عينيها، وهرولت مسرعة إلى السجن تسأل عن أخيها.

وقيل لها: «أخوك بحاجة إلى محام يدافع عنه».

فأسرعت إلى كبار محامي حلب تطلب إليهم الدفاع عن أخيها.

وبذلت من المال الكثير في سبيل إنقاذ رأسه من الإعدام.

واكتفت العدالة بسجنه عشر سنوات، ودفع دية المرأة القتيل.

فهناك أسباب تخفيفية أبعدت الحبل عن عنقه، منها أنه كان في حال السكر الشديد، ساعة ارتكب جريمته. هذا فضلاً عن أن العشيقة كانت بين ذراعي أحد عشاقها عندما فتك بها. وهو لم يطعنها بخنجر ولا هو أطلق عليها الرصاص بل ضربها بعصى غليظة فحطم جمجمتها وقضى على حياتها.

والعصا التي قتلتها ساعدت على إنقاذ عنقه. فقد كانت حجة اتخذها المحامون ليبرهنوا للقضاة أن رياضاً لم يكن يقصد القتل بل هو قصد التأديب والتعنيف. ولو أنه قصد القتل لطعنها بخنجر أو أطلق عليها الرصاص...

وأقام رياض في السجن.

ولم تتخلَّ أخته عنه، بل هي راحت تزوره كل أسبوع حاملة له الهدايا والثياب والمال والطعام. . .

وعادت الأيام لتسرع في المسير.

فانقضت السنوات العشر، كما تنقضي جميع السنين في حياة البشر.

وخيل لسامية أن السنين العشر التي قضاها شقيقها وراء القضبان الحديدية أحرقت بذور الشر في قلبه، وطهرت روحه من الدنس.

إلا أنها كانت على خطأ.

فما إن خطا رياض الخطوة الأولى خارج السجن، حتى شخص إلى المواخير ليدمن على الخمر والمخدرات.

وعاد إلى ما كان عليه: سكر وعربدة وعدو وراء النساء الساقطات.

وكان يحضر من حين إلى آخر، إلى دار أخته المتواضعة لا ليطمئن على صحتها، ولا ليسأل عن حالها، بل ليطلب منها المال.

وكانت سامية تمده بالقليل من المال، في بادئ الأمر.

إلا أنها حبست يدها عنه وقد بدأت هي نفسها تخشى الفقر والعوز.

وانقطع عن زيارتها. وغاب عنها زهاء ثلاث سنوات من دون أن تسمع عنه أي خبر. . .

وذات صباح طُرق بابها.

ووجمت وهي تسمع الطرقات في الساعة المبكرة من الصباح.

وأسرعت تفتح الباب لتجد أمامها شرطياً يقول: الآنسة سامية عدلي؟.

قالت: أنا هي.

قال: شقيقك في المستشفى تفضلي معي.

قالت: ما به؟ ماذا أصابه؟

وقلب الشرطي شفتيه.

وأسرعت إلى المستشفى وراء الشرطي، ودخلت إلى الغرفة البيضاء لتجد رياضاً على فراش الاحتضار.

ولم يستطع أن ينطق بسوى كلمة، كلمة واحدة فقط قبل أن يلفظ أنفاسه: «سامحيني».

وأطبقت على الجثة، جثة أخيها، تبللها بدموعها الغزيرة. لقد أصبحت وحيدة على هذه الأرض.

الكل رحل إلى العالم الثاني! أمها، والدها، وشقيقها. . .

وعلمت أن شقيقها مات قتلاً.

كان يقوم بتهريب المخدرات عبر الحدود فدهمه رجال الأمن، وتبادل وإياهم الرصاص، فأصيب برصاصتين، في ظهره،

وفي رأسه. . . ونقل إلى المستشفى فقال: «أريد أن أرى أختي قبل أن أموت».

وعادت سامية عدلي إلى دارها الصغيرة المتواضعة، بعد أن شيعت أخاها إلى المقر الأخير لتعيش كما تعيش أي عانس، وحيدة حائرة واجمة. لا تستطيع أن تبتسم ولا أن تبكي، لا أن تفرح ولا أن تحزن.

تعيش على ذكرياتها الدامية وأمانيها الآفلة، وأحلامها المهيضة الجناح. . .

وسار الزمن على سرعة واندفاع. . .

وانقضت السنون. .

وأطل عام 1958 وقد مضى زهاء ثلاثين سنة على بدء حوادث القصة.

وكانت سامية عدلي قد أشرفت على الخريف، تقيم في دار صغيرة متواضعة في الناحية الشرقية من الشهباء تعيش من إبرتها، تطرز وتخيط لتشتري الخبز والثياب.

ولم يكن ليزورها أحد. اللهم إلا بعض خدم والدها الأوفياء وفي طليعتهم إبراهيم ابن أم إبراهيم.

وذات صباح طرق بابها.

فأسرعت تفتح الباب، وقد خيل إليها أن الزائر إبراهيم.

ووقفت على رعشة واضطراب، وقد فتحت الباب وشاهدت الطارق.

وبدأت ترتجف. . .

وهمست، وهي تغمض عينيها وتستند إلى الباب لئلا تقع على الأرض: «منير!. . .».

ووثب منير» إليها، وقد وخط الشيب لمته، وحفرت السنون أخاديدها في وجهه ويديه.

وهمس: أجل منير. . . منير يا سامية. . . لقد عاد منير.

وفتح لها ذراعيه.

فارتمت على صدره لتجهش بالبكاء. . .

وعلى مقعد متواضع كسيح في دار سامية جلس منير يروي قصته لحبيبته.

قال: سافرت إلى البرازيل. وعملت هناك. جاهدت وتعبت وتاجرت وجمعت ثروة طائلة. . . لم أنسك يوماً يا سامية. كان هدفي الأوحد أن أعود إلى حلب لأراك. . . وعدت. عدت أسأل عنك فعلمت كل شيء. . . علمت كل شيء من إبراهيم ابن أم إبراهيم. . . وهو الذي أرشدني إلى دارك. . . تعالي. . . تعالي معي. سنحقق أمانينا العذاب. . . سنتزوج ونعود إلى الاجتماع هناك تحت شجرة الفستق عند الصخرة الناتئة العاتية في آخر البستان تعالي. . .

قالت: ولكن البستان ليس بستاننا ولا القصر قصرنا. لقد بعنا كل شيء يا منير. . .

فابتسم وهمس: وأنا أعدت لك كل شيء. لقد اشتريت

القصر والبستان من الشاري... هما ملكي... تعالي، تعالي.

وأمسك يدها، وشدها إلى صدره.

وأسرع بها إلى القصر، إلى قصر والدها الذي خرجت منه ذليلة الخاطر كسيرة الجناح...

وفي حفلة رائعة زاهية تم زفاف منير العباس وسامية عدلي.

ودهش المدعوون وهم يشاهدون العريس في الستين من عمره والعروس في الخمسين.

وما إن انقضت حفلة العرس حتى أمسك منير يد عروسه.

وأسرع بها إلى البستان ليقول: تعالي نجلس هنا... هنا حيث كانت شجرة الفستق... انظري ها هي الصخرة التي كنا نحتمي فيها... إنها ما زالت تنتظرنا يا سامية.

فابتسمت سامية وهمست: ماذا تنتظر منا الصخرة الناتئة وقد أشرفنا على الخريف يا منير؟

وضمها إلى صدره بشوق وحنان.

وهمس في أذنها: «نحن ما زلنا في الربيع. قلبنا في ربيع أخضر الأوراق، ندي الزهر، طري الشباب يا سامية... لقد عاد الربيع. عودة الربيع ستبعث في قلبينا حرارة الحب وتثير لهيب الشباب...

وأطل القمر يلفهما بنوره الفضي اللامع، وتبسط عليهما أغصان الأشجار ظلالها الوارفة، ويصغي الليل إلى وشوشات الحبيبين وهمساتهما الساجية السمحاء.

انتقام الميت

الفصل الأول

سالم الجوال على غضب مقعد مقيم. ابنه ناصر شاب ماجن متهتك شرير. يقضي نهاره في النوم والمقامرة، وليله في السكر والعربدة والفسق والفجور.

وسالم الجوال تاجر رصين، عرف في لبنان وفي البلدان العربية بسمو أخلاقه وباستقامته ونشاطه.

والكل يحترمه ويجله ويحفظ له الإكرام والتقدير.

إلا أن أبنه أذله وكاد يقضي على السمعة العطرة التي عمل سالم الجوال على بنائها وتشييدها وتدعيم أركانها طيلة ثلاثين عاماً.

وغضب سالم الجوّال الغضب الشديد على ابنه ناصر.

وعمد إلى نصحه وإلى محاولة تأديبه.

إلاّ أن ناصراً ما كان إلا ليزيد طيشاً وفسقاً ومجوناً.

ولم يكتف ناصر بما حمل لأبيه من المتاعب والمصائب والويلات، بل عمد إلى تمريغ أنف ذلك الوالد الأبي بالوحول.

فقد اختلس الأموال من صندوق والده. وارتكب الموبقات والمعاصي. . .

وليته اكتفى بما ارتكب من المعاصي ولم ينغمس في الإجرام، إذن لهان الأمر.

غير أن ناصراً أبى إلا أن يغوص في الجريمة النكراء ويلطخ سمعة والده العطرة وكرامته المتناف وشرفه الأثيل.

فقد عمد ناصر إلى محاولة قتل شاب كان ينافسه على حب إحدى بنات الهوى.

وكان ناصر يتردد إلى تلك الدار، وكان قد تدله في حب ربة الدار، وراح ينفق عليها بسخاء ما بعده من سخاء.

إنه لينفق من صندوق والده.

تلك الأموال التي لم يتعب في جمعها ولم يسكب نقطة عرق في سبيل الحصول عليها.

لابأس إن هو أنفقها وبذرها من دون حساب.

وكانت خليلته تجود عليه بما يريد.

كانت توهمه بأنها تقيم منه على هوى جارف وغرام عنيف.

ويؤمن ناصر بما تقول، ويغمرها بالهدايا، وبالحلى والجواهر والهوى والحب والهيام.

إلا أن عينيه تفتحتا على الحقيقة.

فقد علم أن ثمة من ينافسه على قلب تلك المرأة.

وغضب وحنق وعزم على الانتقام.

وراح يرقب حضور المنافس العاشق إلى دار الخليلة الحسناء.

وما طال انتظاره.

فقد أقبل ذات ليلة ذلك المنافس إلى دار الخليلة، وإذا بالغيرة العمياء تثور في رأس ناصر الجوال، فينتضي خنجره المصقول ويثب إلى منافسه يغمد الخنجر في صدره غير عابئ بكرامة والده ولا بسمعة أسرته ولا بصوت الضمير الصارخ في أعمق أعماقه ليردعه عن الجريمة المروعة النكراء.

ووثبت الخليلة إليه محاولة الدفاع عن الشاب، فما كان من ناصر إلا أنه أغمد خنجره في صدرها وركن إلى الفرار.

ولجأ ناصر الجوال إلى والده، ويداه ملطختان بالدم.

وثار الوالد.

وحاول تسليم وحيده الشرير إلى يد العدالة لتستأصل من روحه جذور الشر وتطفئ في قلبه تلك النار الشريرة، الملتهمة زهور الفضيلة وورود الخير وزنابق الطهارة البيضاء، إلا أن والدة ناصر وقفت حيال زوجها تردعه عن تسليم ابنها إلى يد القضاء.

ووقف سالم الجوال في وجه زوجته صارخاً كالعاصفة

الهوجاء: هذا ليس ابني، هذا ولد شرير. إنه خطر على المجتمع، ووباء في أسرته، يجب الاقتصاص منه، يجب تأديبه، يجب إصلاحه، مكانه ليس في داري، هناك، هناك في غياهب السجون مكان هذا الشاب الخبيث الشرير اللعين.

وبكت أم ناصر: يا أبا ناصر كن عاقلاً. هذا ابننا فلذة كبدنا، إنه وحيدنا، أتلقي بوحيدنا في أعماق السجون؟ وماذا تكون حالي، وماذا تكون حالك وقد أقام ابننا في السجن المظلم الجنبات؟

قال: إذا لم نسلمه إلى رجال الشرطة، فإن رجال الشرطة سيطاردونه ويهتدون إليه. ليس ثمة مفرّ من القضاء. ابنك قاتل، لقد قتل امرأة ورجلاً. الإعدام للقاتل المجرم الشرير.

فأعولت وبكت، وأجهشت بالبكاء.

وتمتمت، وهي تمسح دموعها الغزيرة: ومن قال لك إن المرأة والشاب قتلا؟ إنهما في المستشفى، ما زالا تحت رحمة الطب. قد يقدِّر لهما الشفاء.

قال: ومن يدري؟ الموت ليس ببعيد عنهما. إذا قضيا وجب عليَّ تسليم القاتل إلى يد العدالة.

قالت: وإذا لم يصل الموت إليهما؟

فصمت أبو ناصر... وطال صمته...

فاستأنفت أم ناصر السؤال: قل، قل يا أبا ناصر، إذا لم يموتا فماذا يكون نصيب ناصر منك؟

قال: إذا لم يموتا فسأكتفي بطرد ناصر من داري. لن أسمح بإقامة المجرمين تحت سقف هذه الدار، أما إذا مات الشاب أو ماتت المرأة، أو مات الاثنان، فابنك سيحل في السجن. أنا سأسلمه بيدي إلى رجال الشرطة، لن أكون مجرماً، لن أقف في جانب الجريمة ضد العدالة، لا، لا. هذا المجرم يجب أن تطبق عليه أبواب السجون.

وبدا سالم الجوال في ثورة جامحة هائلة مخيفة.

وأسرعت أم ناصر إلى المستشفى تسأل عن حال الجريحين: ترى أيكونان قد رحلا عن هذا العالم؟ إن يكن الموت قد وصل إليهما فيا ويلها. ابنها سيصل إلى السجن، ومن يدري قد يصل إلى منصة الإعدام...

ولاح لها ناصر، وحيدها، في الخيال معلقاً بحبل المشنقة فكادت تجن...

ووقفت أمام باب المستشفى على جزع وخوف واضطراب.

وحاولت الدخول فما أسعفتها رجلاها في المسير.

وطال وقوفها. ومضت في وجومها وحيرتها وارتباكها.

وشاهدها البواب في وقفتها الساهمة الحيرى، فاقترب منها يتمتم: ما بال سيدتي تقف هنا؟ أيكون ثمة حاجة تقضيها لها؟

وتمتمت أم ناصر: أجل يا ابني. لي حاجة عندكم. فأنا أريد أن أعرف مصير الجريحين اللذين جيء بهما أمس إلى هنا. . . امرأة في العقد الثالث من العمر وشاب في ريعان الشباب.

فتساءل: المرأة والرجل اللذان طعنهما ابن التاجر سالم الجوال؟

فوجمت وازداد اضطرابها. يا ويلها لقد فضح أمر ابنها، ستنشر الصحف النبأ وتصف ناصراً بالمجرم الشرير. . .

وتمتمت: نعم، نعم هما.

قال: لقد تحسنت حالهما وابتعد شبح الموت عن سريرهما.

فتنفست أم ناصر الصعداء، ورفعت نظرها إلى السماء تشكر إله السماء: الحمد لله، الحمد لله.

واستأنفت السؤال: هل يمكن للموت أن يعود إلى الاقتراب منهما يا ابني؟

قال: الطبيب أعلن أن باستطاعة المرأة أن تعود إلى دارها. فهي بخير، أما الشاب فلن يسمح له بالخروج من المستشفى قبل أسبوع، إلا أن ليس ثمة أي خطر على حياته.

وابتسمت أم ناصر، وشاهدت البواب ينظر إليها بحيرة وفضول، فأدركت أن الابتسامة ليست بالنقد الرائج لدى البواب.

لقد أدركت أنه يريد ثمن البشرى.

ففتحت محفظتها وأخرجت منها ورقة نقدية نفحت بها البواب.

وعادت أدراجها على أمل باسم وارتياح مديد وارف الظلال.

وأسرعت أم ناصر إلى زوجها حاملة له البشرى: يا أبا ناصر، المرأة والشاب ابتعدا عن الموت، بقي عليك أن تعفي عن ولدنا.

فصمت سالم الجوال.

وراح ينظر إلى الأفق البعيد على تفكير عميق القرار.

وأدركت أم ناصر أن زوجها يفكر بالمستقبل البعيد: إن يكن ناصر نجا الآن من حبل المشنقة، فلن تقدر له النجاة في المستقبل. ناصر لن يرتدع عن ارتكاب الجرائم وقد سار الخطوة الأولى في الطريق، لقد قدرت للشاب وللمرأة الحياة، أما في المستقبل فمن يدري ماذا سيكون؟ إذا لم يكن السجن مقر ناصر فقد يكون المستشفى، ما كل مرة تسلم الجرة.

وصمتت أم ناصر.

وغرق الاثنان، الأب والأم، في صمتهما العميق، فما نطقا بحرف.

وبعد صمت طويل رفع سالم الجوال نظره إلى زوجته ليتمتم: يا أم ناصر، ابنك لن يقيم في هذه الديار.

فجزعت الأم: ماذا تقول يا سالم؟

قال: أقول إن ناصراً يجب أن يسافر، لن يكون رجلاً يتكل على نفسه إلا وقد أصبح وحيداً في بلاد الغربة، أما هنا، فما دام

يتكل على أبيه فهو سيظل ذلك الشاب الضال الشرير الضائع الآمال، المجهول المصير، الأسود المستقبل.

فارتاعت أم ناصر.

وتمتمت: لا، لا، هذا ما لا يكون. لن أطيق البعاد عن ابني. أتريد أن تحرمني منه؟

قال بحزم: خير لك وله أن تفترقا الآن لمدة من الزمن من أن تفترقا بعد أمد قصير العمر كله. قلت لك إن ناصراً ليس بالرجل الحازم الرصين المستقيم السبيل. إذا بقي هنا في لبنان فسيكون السجن مثواه والمشنقة نهايته.

قالت: وهناك في الغربة ماذا ستكون حاله؟

فهدر سالم الجوال: هناك لن يكون والده قربه، ولا أمه، سيكون اتكاله على نفسه، لن يرتكب جريمة لأنه يعلم أن والده لن ينقذه من السجن، ولن يبذر أمواله على بنات الليل لأنه يعلم أن القرش الذي ينفقه، هو جني يمينه، وثمن نقطة العرق التي سكبها جبينه، ولن يقامر لأنه سيخشى الخسارة وصندوق أبيه بعيد عنه. إذا شئت أن تريحي ولدك اتركيه يسافر لخمس أو لعشر سنين. ويعود بعدها إليك رجلاً كامل الرجولة، عامر القلب بالخير، طافح الروح بالصلاح، هذه هي إرادتي وما كنت يوماً لتخالفي هذه الإرادة يا أم ناصر.

فغرقت الأم البائسة في الصمت وقد أدركت أن كل ما قاله زوجها صحيح.

وأيقن سالم الجوال أن كلامه لقي الموافقة من زوجته.

فمضى يقول: يا أم ناصر خير لك أن تخسري ابنك لخمس سنين من أن تخسريه العمر كله. هذا ابني، ليس ابنك وحدك. والعاطفة التي تختلج في قلبك نحوه هي العاطفة نفسها التي تختلج في قلبي. أريد أن أنقذ ابني من الوحول التي يتمرغ فيها، ومن الظلمة الحالكة السواد التي تغمره وتحجب النور عن عينيه.

فأجهشت أم ناصر بالبكاء، وقد أيقنت أن ابنها سينأى عنها، وأنها لن تراه إلا بعد سنين طويلة، ومن يدري؟ قد لا تراه أبداً، فالذين هاجروا كثيرون والذين عادوا من المهجر قليلون.

وطيب سالم الجوال خاطر زوجته: لا بأس يا أم ناصر إن سافر ابننا اليوم فهو سيعود غداً رجلاً رصيناً مهذباً مستقيم الطريق.

ودعا إليه ناصراً: تعال يا ناصر، تعال.

وجاء ناصر على كسرة فؤاد وحيرة وارتباك.

وقال سالم الجوال لولده: أنت لن تظلَّ في هذه البلاد. بقاؤك هنا خطر على مستقبلك. يجب أن تسافر، سأعطيك من المال ما يكفيك أجرة الطريق والإنفاق على مشروع صغير تبني به مستقبلاً. خذ هذه عشرة آلاف دولار أميركي. منذ اليوم تبدأ بمعاملات السفر، ولن يطل الأسبوع القادم إلا وتكون قد غادرت لبنان.

قابتسم ناصر للآلاف العشرة.

وتمتم: روحي فدى والدي، إلى أين يريدني أبي أن أسافر؟

قال أبو ناصر: هذا هو شأنك، لك وحدك أن تختار البلاد التي تحل فيها.

فأطبق ناصر الجوال على يد والده يقبلها ويتمتم: شكراً لك يا والدي الحبيب، شكراً لك.

الفصل الثاني

شد ناصر الجوال الرحال إلى الولايات المتحدة، إلى نيويورك.

ووصل إلى المدينة الأميركية غريباً قلق الخاطر تائه النظرات.

هذه البنايات الشاهقة الشامخة المنتصبة في المدينة الأميركية تناطح السحاب لم تقع على مثلها عيناه قبل الآن.

وهذه المصانع الواسعة الأرجاء النافثة دخانها في الفضاء، تسدّ على الأميركيين منافذ النور، وتخنق أنفاسهم، لم يقدَّر لناصر الجوال أن شاهد شبيهاً لها.

وهذه الوثبة إلى المدنية، المدنية المزيَّفة، التي تقود الإنسان أبداً إلى الوراء، إلى مجاهل عبودية المادة، هذه الوثبة لم يرَها ناصر الجوال في بلاده الهانئة الناعمة في السلام والطمأنينة والهناء.

وكان ناصر الجوال يحمل معه عنوان أحد أبناء قريته، عنوان جميل الحارس.

وجميل نزح عن القرية منذ أمد بعيد، منذ عشرين سنة.

وحلَّ في نيويورك، حيث بدأ عاملاً في مصنع للحديد.

ولم يلبث أن جمع ثروة متواضعة. وأنشأ مصنعاً صغيراً لصب الحديد.

وتدفقت الأموال بين يديه بفضل جهوده واستقامته ونبل أخلاقه. فأصبح صاحب مصنع كبير في ضواحي نيويورك، له فروعه في بعض المدن الأميركية.

وتزوّج جميل من فتاة أميركية.

وهي ابنة أحد كبار تجار الحديد.

ولكن الله الذي أنعم على جميل الحارس بالثروة والجاه والخير، ضنَّ عليه بالبنين.

فحرم جميل الحارس من ولد يعدّه للميراث الضخم الكبير.

وشخص ناصر الجوال إلى مصنع مواطنه جميل الحارس.

ووقف أمام المصنع المترامي الأطراف، المطلق عربداته وهدير محركاته كأصوات الجن النافخة في الأودية السحيقة القرار.

وأعجب بهذا المصنع الكبير.

ووقف أمام الباب الخارجي يجيل نظره في أجنحة مصنع جميل الحارس.

ودخل.

فاستقبله موظف بثياب رسمية يقول: ماذا يأمر سيدي؟

وقال ناصر الجوال بلغة أميركية محطمة: أريد مقابلة السيد جميل الحارس.

فابتسم العامل: جميل الحارس، دفعة واحدة؟

وتمتم: يمكن لسيدي أن يقابل الموظف المختص بطلبه، أو إذا شاء يمكنه مقابلة سكرتير السيد جميل، أما صاحب هذا المصنع، السيد جميل الحارس، فلا يمكن مقابلته إلا بناء على موعد سابق.

وحاول ناصر الجوال إقناع الموظف بالسماح له بمقابلة السيد جميل.

إلا أن الموظف أصرَّ: هذا هو النظام هنا في هذا المصنع، وهذه هي الأوامر التي تلقيتها. لا يسعني إجابة طلبك يا سيدي إني آسف. إذا شئت أن تصل إلى مقابلة السيد جميل ما عليك إلا أن تسجّل اسمك الآن، وبذلك فقط يمكنك مقابلته بعد شهر واحد على أبعد تعديل.

فصعق ناصر الجوال. ماذا يقول هذا الرجل؟ هل جن؟

أيتحتم عليه الانتظار شهراً كاملاً ليقابل ابن قريته جميل الحارس؟

وغضب ناصر. وخرج من المصنع على حنق وغضب ووجوم. وعزم على أن لا يعود إلى مصنع جميل الحارس.

لن يقابله. ما له ولهذا الرجل المادي الذي يوصد بابه في وجوه زائريه.

وسار على غير هدى.

وشعر بحاجة إلى الراحة فانطلق يسأل عن فندق يأوي إليه.

وأرشدوه إلى فندق متوسط الحال. إلا أنه أبى اللجوء إلى ذلك الفندق. هو يريد فندقاً فخماً يليق بالمقام الرفيع. فهو يحمل مبلغ عشرة آلاف دولار، لن يختار إلا فندقاً رائعاً، أنيقاً، عالي الجوانب، شامخ البنيان.

ابن سالم الجوال لن يرضى بالذل والهوان.

وراح يسأل عن فندق أنيق فخم كبير.

وأرشدوه إلى الفندق المختار، وهو من فنادق نيويورك الشهيرة الذي يختاره الملوك والوزراء والأمراء والسلاطين.

وارتاح إلى ذلك الفندق.

واختار غرفة أنيقة فخمة، احتلها على الرحب والسعة.

وانصرف إلى الإنفاق. فكان ينفق من دون حساب.

إنه ليبذِّر أمواله على الموائد الخضراء، وفي الملاهي والمراقص والنوادي الليلية، حيث تنتشر بنات الليل يبعن اللذة ويتاجرن بالشرف.

وأي قيمة للشرف في بلاد تغوص في المادة وتغرق في الحديد وتذوب تحت وطأة الأصفر الرنان؟

ولم يفكر بالغد، لماذا يفكر بذلك الغد المجهول القرار؟

وكان يقضي كل أوقاته في اللهو والشراب والمجون.

وتعرف إلى عدد كبير من النساء.

فانغمس في هواهن يغرف منه ولا يرتوي.

وبدأت الآلاف العشرة التي جاد بها أبوه عليه ليتاجر ويربح ويعود إلى بلاده، تنضب.

وبدأ ناصر الجوال يشعر بشبح الفاقة يزحف إليه باتئاد خطى.

فحاول الوقوف في الطريق.

حاول الارتداع عن الإسراف والتبذير، حاول العودة إلى الوراء إلا أنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومضى في جنونه، يسهر ويشرب ويعربد ويسكر ويقامر ويعدو وراء النساء.

واستفاق بغتة على الحقيقة المؤلمة. فقد أنفق آخر دولار يحمله في جيبه، وأصبح شريداً طريداً فقيراً معدماً، في بلاد غريبة ليس له فيها أهل ولا أصحاب.

وراح يبحث عن عمل.

إلا أنه لم يوفق في الحصول على عمل.

وطال بحثه وتفتيشه من دون جدوى.

ونزح عن الفندق الفخم الذي كان يعيش فيه إلى غرفة حقيرة استأجرها بدولارات قليلة.

وباع بعض ثيابه ليدفع الإيجار الشهري.

وارتاع ناصر الجوال.

وانزوى في غرفته الحقيرة المتواضعة يبكي حظه العاثر الشائك المؤلم الحرون.

واستأنف البحث عن عمل.

إلا أنه لم يتمكن من العثور على ما يبعد عنه شبح الفاقة.

وأحس بالجوع يفتح فاه ويثب إليه ليغرز أنيابه في جسده.

وهاله أن يصل إلى هذه النهاية، أن يجوع، وهو الذي كان ينفق ماله بسخاء.

وراح يعمل جاهداً على إبعاد شبح الجوع عنه، إلا أنه لم يوفق.

لقد كان شبح الجوع يسرع الخطى إليه، ويعمل على الفتك به.

واحتار ناصر الجوال في أمره. ويله. ماذا عساه أن يفعل في بلاد الغربة حيث لا أهل له ولا أصدقاء؟

لو أنه كان في لبنان لأسرع إلى أبيه يطلب منه المال.

وإذا رده أبو خائباً يلجأ إلى أمه، وأمه لا تضن عليه بالمال الوفير.

ورأى الدنيا ظلاماً في ظلام. جيبه فارغ، وبطنه فارغ. وصاحب الغرفة التي يقيم فيها يلح في المطالبة بالأجرة، وكل ما حوله متجهم الوجه عبوس.

ورأى أن يمد يده للسؤال.

التسول وحده يقيه شر الموت جوعاً.

فليمدّ يده إلى المحسنين طالباً إليهم دفع الجوع عنه.

ووثب إلى الشارع يمد يده طالباً حسنة لوجه الله الكريم، وقد خيل إليه أنه في شوارع بيروت، وأن الحسنات ستتدفق عليه فيجعل من التسول تجارة رابحة.

إلا أنه كان مخطئاً في ما خُيّل إليه.

فقد وثب رجال الشرطة نحوه يقبضون عليه ويدفعون به إلى السجن.

التسول ممنوع في الولايات المتحدة الأميركية. إنه ضرب من الاحتيال والتدجيل.

العاجز، المريض، المقعد، الضرير، المشوه، يجد الجمعيات الخيرية والمؤسسات الحكومية تحميه ضد المرض

والفقر والجوع. أما أولئك الذين يستطيعون العمل، فيجب أن يعملوا ويجنوا خبزهم بعرق الجبين.

وبدأ التحقيق مع ناصر الجوال، وأدركوا أنهم حيال شاب غريب، وأنه يجهل قوانين البلاد.

وسألوه: هل تعرف أحداً هنا في نيويورك؟

قال: أعرف جميل الحارس صاحب مصنع الحديد، إنه مواطني.

قالوا: سنتأكد مما تقول، والويل كل الويل لك إذا كنت كاذباً.

واتصلوا بصاحب مصنع الحديد يسألونه: هنا شاب اسمه ناصر الجوال، من لبنان، قبضنا عليه يتسول في الشوارع، يقول إنه يعرفك وإنه مواطنك، أصحيح ما يدعي؟

قال جميل الحارس على الفور: أجل، إنني أعرفه.

ولم يكتف جميل الحارس بأداء الشهادة هاتفياً، بل هو وثب إلى السجن يسأل عن ناصر الجوال.

أسرة الجوال تقيم في قريته.

ترى من يكون ناصر الجوال؟ أيكون ابن حبيب؟ أم ابن فهد؟ أم ابن سليمان؟ أم ابن سالم الجوال؟

إنه ليعرفهم جميعاً.

وطلب جميل الحارس مقابلة ناصر الجوال، فسمحوا له بذلك.

وجلس جميل الحارس يسأل ناصراً: ابن من أنت يا ابني؟

قال ناصر: أنا ابن سالم الجوال، جئت إلى هذه البلاد سعياً وراء المال، وقد جاد عليَّ والدي بعشرة آلاف دولار أنفقتها هنا من دون أن أعلم ماذا تخبئ لي الأيام، وعندما أصبحت صفر اليدين خشيت الموت جوعاً فلجأت إلى التسول.

فوجم جميل الحارس: أنت ابن سالم الجوال؟ إنني لعلى صداقة متينة الأركان بوالدك يا ابني، يوم غادرت لبنان، كنت أنت لا تزال طفلاً، كنت في السادسة أو في السابعة من عمرك، كيف أحوال أبيك؟ وكيف القرية وأهلها وأشجارها وأزهارها وينابيعها وعصافيرها وطيورها؟ قل لي يا ناصر، ألا يزال النهر يسكب ألحانه في أذن ذلك الوادي الرهيب؟ وحرج الصنوبر الدائم الاخضرار، ألا يزال يحنو على قمة الجبل الشرقي في قريتنا الهادئة الصامتة الهاجعة في أحضان السعادة والجمال؟ وأبناء القرية كيف أحوالهم؟ ألا يزالون يحيون ليالي الأنس والسمر وينشدون العتابا والميجانا والمعنَّى، ويرقصون الدبكة في سهراتهم العامرة؟ كيف أحوال المختار إبراهيم؟ والفلاح منصور؟ وأم أيوب وخولا؟ وسليمان دياب؟ كلهم كيف أحوالهم؟ تعال، تعالَ أخبرني كل شيء يا ابني.

وأمسك يده يخرج به من السجن ويدفع عنه ما يتوجب عليه من الرسوم ويطير به إلى داره.

إلى داره؟ بل إلى قصره الشامخ المنيف مرجباً به: أنت منذ اليوم تقيم هنا، هنا في هذا القصر، لم يرزقني الله أولاداً، أنت يا ناصر ستكون ولدي، ستعيش كما أعيش وتحيا كما أحيا، لن تجوع بعد اليوم، ولن تكون بحاجة إلى المال. ستعمل في مصنعي، ستكون مديراً للمصنع وتقيم في قصري، ستكون سيد القصر، لن تحتاج إلى شيء يا ناصر، اطمئن فكأنك تعيش في دار أبيك. أبوك صديق حميم لي، فهو من خيرة أبناء الوطن علماً وذكاءً وأدباً وذوقاً واستقامة، ولوالدك عليَّ جميل سأرد الجميل لابنه.

واغرورقت عينا ناصر الجوال بالدموع وكلام جميل الحارس يقع في أذنيه.

هذا الرجل النبيل ملك عليه شعوره.

فهو يكلمه كما يكلم الوالد ابنه.

إنه لرجل نبيل.

سيعمل ناصر عل خدمته بصدق وإخلاص. لولاه لكان ناصر الآن في أعماق السجون، ولكان عرضة للموت جوعاً في شوارع نيويورك وأزقتها المقطبة الجبين.

الفصل الثالث

بدأ ناصر الجوال عمله في مصنع الحديد. وكان صاحب المصنع قد أوصى العمال بأن يأتمروا بأمره.

ودعا إليه مدير المصنع المستر تجوي هايميز، يوصيه بناصر الجوال: هذا أحد أنسبائي، جئت به من الوطن لأسلِّمه مقاليد أعمالي. أريدك أن تلقنه قوانين العمل، وأن تكون له المرشد الأمين يا تجوي.

وانحنى تجوي متمتماً: سأفعل ما يأمر به سيدي. سيكون نسيبك بمثابة أخي يا سيدي جميل، وإنني لأتحين الفرص لأرد لك الجميل الذي طوقت به عنقي.

فابتسم جميل الحارس لمدير مصنعه ومضى في سبيله.

وللسيد جميل، جميل في عنق تجوي هايميز.

فهو قد أنقذ عنقه من الإعدام.

لقد كان تجوي شقياً مخيفاً كان يرتكب المعاصي والشرور.

وقد ارتكب جرائم مخيفة في الولايات المتحدة الأميركية فاعتقلته السلطات وحكمت عليه بالإعدام.

وأسرعت أم تجوي إلى مصنع جميل الحارس مستنجدة برب العمل.

وأم تجوي تقيم في دار متواضعة قرب مصنع جميل.

فما كان من الرجل اللبناني النبيل، إلا أنه أشفق على الوالدة المستنجدة به، وأسرع إلى رجال الحكم يعمل بماله وبنفوذه على إنقاذ عنق تجوي.

وكان له ما أراد.

واستطاع إنقاذ الشاب، ليس من الإعدام فحسب، بل من السجن أيضاً.

ولكن بعد أن بذل من ماله الخاص زهاء خمسين ألف دولار.

وعندما خرج تجوي من السجن توجه توا إلى مصنع جميل الحارس يقف بين يديه ويتمتم: أنت أنقذت رأسي، وأنا أضع هذا الرأس الذي أنقذته في خدمتك.

فأكبر جميل الحارس بهذا الشاب الشرير الروح الأبية الكامنة في ظلام الشر الغامر روح تجوي. وأراد أن تكون حسنته كاملة فأدخل تجوي إلى مصنعه.

وأظهر الشاب اندفاعاً في العمل، وغيرة على أموال رب العمل.

فما كان من جميل الحارس إلا أنه أسند إليه إدارة المصنع الكبير.

وكان تجوي مثال العامل النشيط الأمين.

ووثق جميل الحارس به، وسلمه مقاليد مصنعه.

ويوم أقبل جميل الحارس إلى المصنع ممسكاً بيد ناصر الجوال، طالباً إلى تجوي الاهتمام بأمر ناصر، كان يدرك أن تجوي سينصرف إلى تعهد الشاب اللبناني الوسيم بعنايته واهتمامه.

وما أخطأ جميل الحارس في اعتقاده.

فقد اهتم تجوي بأمر ناصر، وراح يعمل على تلقينه أصول أنظمة المصنع. ويقدم إليه النصائح والإرشادات، ويعدُّه لأن يكون مديراً صالحاً للمصنع الكبير.

وناصر الجوال ليس بالشاب الغبي.

إنه لعلى ذكاء ومقدرة وانطلاق.

لذلك فقد كان يتقن التتلمذ على يد تجوي.

وأصبح بمدة وجيزة مطلعاً على أصول صبّ الحديد وقطعه وشحذه وتوضيبه.

وأتقن علم تجارة الحديد وضبط حساباتها.

وأصبح صالحاً لتبوّء عرش المديرية الأولى في المصنع.

أما تجوي فقد ظلّ في المديرية الثانية، يشرف على العمل وعلى حال المصنع الداخلية.

إن سلطته لتنحصر داخل المصنع، في حين أن سلطة ناصر الجوال تمتد إلى أبعد من أبواب ذلك المصنع الكبير.

إنها لتمتد إلى فروع المصنع في المدن الأميركية، وإلى تجارة الحديد الواسعة الأطراف.

فكأنه شريك للسيد جميل الحارس في مصنعه الكبير.

ولم يجد جميل الحارس على ناصر الجوال بالعمل في مصنعه بمرتب ضخم كبير، ما كان ليحلم بالوصول إليه يوماً فحسب، بل جاد عليه بأكثر من ذلك، لقد دعاه إلى الإقامة في قصره الفخم...

ألم يعده بأن يعامله معاملة الابن؟

ابنه يجب أن يعيش في قصره، وناصر الجوال سيعيش في قصره.

وفتح جميل الحارس لمواطنه ناصر الجوال قصره يحتله على الرحب والسعة.

ودعا الخدم إلى إطاعته، وطلب إلى زوجته أن تكرم مثواه.

وزوجته، السيدة نينا امرأة كريمة الخلق، رائعة الجمال، وبالرغم من أن زوجها يدرج في العقد السابع من العمر، فهي ما تجاوزت العقد الرابع، هو في الخامسة والستين، وهي في الثامنة والثلاثين من عمرها.

وكانت السيدة نينا تعطف على ناصر وتحنو عليه.

إنه لغريب في الولايات المتحدة الأميركية، ولا تريده أن يشعر بالغربة والوحدة والسأم.

وكانت السيدة نينا تهتم بأمور ناصر الجوال.

كانت تهيء له الراحة التامة وتشرف بنفسها على ترتيب غرفته، وعلى إعداد طعامه وتنظيف ثيابه. هذا ضيفهم وعليها أن تهتم بالضيف الكريم.

وشعر ناصر بأنه يعيش بين أهل وإخوان.

لقد شعر أن جميل الحارس قريب إلى قلبه قرب الوالد الحبيب، وأن زوجته ليست بغريبة.

وكان مرتاحاً كل الارتياح إلى العمل في مصنع ابن الحارس، وإلى الإقامة في قصره الفخم الشامخ المنيف العالي الأجنحة الوارف الجنبات.

وجميل الحارس كان يعطف على ناصر ويحبه، كما يعطف على نسيب قريب إليه ويحبه.

ووثق بمواطنه كل الوثوق. واطمأن إليه، فأطلعه على كل أسراره.

وأصبح ناصر الجوال واحداً من أسرة الرجل الصناعي.

كل ما يجري داخل القصر وفي المصنع يطلع عليه ناصر الجوال، ويعرف خفاياه.

واطمأن ناصر إلى الحياة في كنف جميل الحارس وزوجته الحسناء.

وجميل الحارس وزوجته اطمأنا أيضاً إلى وجود ناصر بينهما.

وكانت السيدة نينا أشدّ ارتياحاً من زوجها.

إنها لترى في وجود هذا الشاب قربها أملاً أخضر الأغصان خضيل الجناح.

وكثيراً، كثيراً ما كانت السيدة نينا تطلع ناصرًا على أسرارها، ولا تخفي عنه شيئاً، وتستشيره في بعض المعضلات العائلية.

فيشترك ناصر معها في الرأي ويبدي وجهة نظره في تلك المعضلات.

وإذا ما قدر للسيدة نينا أن تختلف في الرأي مع زوجها أسرعت إلى ناصر تطلعه على الأمر وتطلب إليه أن يبدي رأيه الصريح.

ويبدي ناصر الرأي.

وكثيراً ما يكون هذا الرأي في مصلحة نينا الفاتنة الحسناء.

وبدأت السيدة نينا تشعر بحنين عميق إلى هذا الشاب اللبناني الوسيم الأنيق، البعيد النظرات، العامر الصدر، المفتول الساعدين.

إلا أنها كانت تحاول إخفاء حنينها.

إنها لتحاول التمويه عن نفسها.

فتقول في سرها: ما هناك سوى عاطفة صداقة ومودة تقربني إليه... وغير هذه العاطفة لن تختلج في قلبي عاطفة هوجاء.

أما ناصر فكان ينظر إلى السيدة نينا نظرات حائرة تائهة غامضة، لا معنى لها ولا لون.

إنه ليجهل ما هي تلك النظرات.

وماذا تخفي وراءها وماذا تطوي بين لهيبها المستعر البعيد.

ومضت الأيام...

وكل يوم يمضي تشعر نينا أنها تبتعد فيه عن زوجها النبيل، لتقترب من ناصر الجوال.

وناصر، كان قد بدأ يشعر بالهوى يغمر روحه، ويلف قلبه بوشاحه الواهي الشفاف الظليل.

وأدرك ناصر الجوال أنه يحب نينا.

ولكن هل يستطيع أن يبوح بحبه الظليل؟

أيجوز أن يخون جميل الحارس، الرجل النبيل، الذي فتح له قلبه ومصنعه وقصره؟

أيبادله المعروف خيانة، والفضل جحوداً، والجميل طعنة في الظهر؟

لا، لا، ناصر الجوال لن يكون شريراً إلى هذا الحد.

لن يلثم شرف جميل الحارس، ولن يسلبه قلب زوجته.

لن يفعل هذا، لن يفعل هذا...

وعزم ناصر الجوال على المسير في طريق الشرف الأثيل.

لقد عزم على أن يكون شريفاً «هذه المرّة...».

سيجمع شيئاً من المال، يكفيه للظهور بمظهر الأغنياء الموسرين، ويعود إلى لبنان ينشئ مصنعاً للحديد، ويغمر الأسواق العربية بإنتاج مصنعه الكبير.

هذا كل ما يريد ناصر الجوال ويتمنى.

أما قلب نينا فلن يحاول الظفر به.

لا، هذا القلب ملك لجميل الحارس وسيظل لجميل الحارس.

وما كان يفكر به ناصر الجوال فكرت به نينا الحسناء.

إنها لتقاوم قلبها الولوع.

وتعمل على كبح جماح ذلك القلب المتقد النيران المندلع اللهيب.

وكلما أوت إلى سريرها انطلقت أفكارها الهائمة في الفضاء البعيد، تسبح في عالم الخيال.

وتشاهد في خيالها السحيق ناصراً يضمها إلى صدره، فتغيب في عالم الأحلام والأوهام.

وتعود فجأة إلى رشدها لتخفي وجهها بيديها وتجهش بالبكاء.

فهي لا تريد أن تنهار وتنزلق إلى درجات الخيانة الزوجية.

تريد أن تظل على قمة الشرف، وفي مدارج الطهر الناصع البياض.

وتغمض عينيها. وتتمتم: لا، لا، لن أخون زوجي، لن أخون زوجي.

وزوجها المسكين ينام على حرير.

إنه ليؤمن إيماناً ثابتاً وطيداً بنقاوة زوجته.

فلا يخامر قلبه الشك، ولا يسمح لأفكاره بأن تجنح إلى التفكير بالسوء.

نينا مثال الزوجة المخلصة الوفية الفضلى...

ويسير الزمن هازئاً ضاحكاً مقهقهاً قهقهاته المرعبة.

ويسير الثلاثة مع الزمن:

نينا على نار، وناصر على شوق وحب وحنين، وجميل على هدوء وسكينة واطمئنان.

الفصل الرابع

غادر جميل الحارس نيويورك إلى ولاية كاليفورنيا لتفقُّد مصنعه هناك والاطلاع على سير العمل.

وأوصى ناصراً بمصنعه وبقصره، وبمن في المصنع وبمن في القصر.

ولم ينسَ جميل الحارس أن يوصي زوجته الحبيبة نينا بناصر الجوال، قبل أن يغادر نيويورك.

ـ نينا أريدك على اهتمام بضيفنا ناصر. هذا شاب مسكين بعيد عن أهله ووطنه، وليس له سوانا في هذه البلاد. أرجوك يا نينا أن تهتمي بأمره وأن تهيئي له أسباب الراحة ووسائل السعادة والطمأنينة والهناء.

ونزلت نينا عند إرادة زوجها السامية.

فاهتمت بالضيف العزيز.

لقد اهتمت بناصر الجوال.

اهتمت به إلى حد بعيد، بعيد جداً، ما كان زوجها ليأمل، ولا ليريد أن تصل في اهتمامها إلى هذا الحد.

وما إن غادر زوجها نيويورك حتى كانت السيدة نينا تثب إلى ناصر الجوال فتمسك يده وتسير وإياه إلى المنتزهات والملاهي والنوادي.

وقضت وإياه سهرة عامرة في ناد ليلي صاخب.

وقبل انبلاج الفجر البعيد بقليل،خرجت وإياه في السيارة الفخمة الأنيقة في نزهة هادئة رائعة.

وكان ناصر يقود السيارة ونينا تجلس قربه.

واقتربت منه حتى التصقت به.

وارتاح ناصر إلى اقترابها منه، وشعر بأنفاسها الملتهبة تهب على عنقه.

وهاجه الحنين العميق البعيد القرار.

وأحسّ بروحه الهائمة تغمر روحها، وبحنينه يعانق حنينها.

لقد أحسّا بموجة الشوق المتقد النار يلسع روحه ويلسع روحها.

وكان النسيم العليل يعبث بشعرها المتماوج على كتفيها فتندثر خصلاته الذهبية وتتبعثر كحفنات من ذهب أصفر لامع برّاق.

والليل يبسط جناحيه عليهما.

ونور القمر البهي يسكب عليهما أنواره الفضية الساطعة

الحالمة المعطاء، فيزيد حنينهما حنيناً، وشوقهما شوقاً، وسعير قلبيهما سعيراً لاذعاً، مؤلماً، متقد اللهيب، محموم الأنفاس.

وإذا بالزوجة الوفية الحسناء تمد يدها البضة البيضاء وراء كتفي ناصر الجوالَ وتلقي برأسها الجميل على كتفه، وتغمض عينيها على رؤى وخيال وأحلام وارفة الظلال.

وتتمتم، بنشوة وشوق وانكسار فؤاد: ناصر!... ناصر!

وخرجت الكلمتان من بين شفتيها كأنات الكمان. ووقعت في أذن ناصر الجوال كاللحن الشجيّ الحزين، فبعثت الهوى ناراً محرقة في فؤاده.

وأوقف السيارة.

وانفجر الحب عنيفاً متمرِّداً صارعاً مخيفاً في القلبين، قلب نينا زوجة جميل الحارس وقلب ناصر الجوال.

وشاهد القمر البهي النور، المتبختر على مسرح الفضاء الواسع الرحيب مأساة الخيانة العظمى.

خيانة زوجة غمرها الزوج النبيل بالحب والعطف والمال والاسم الكريم.

وخيانة صديق أنزله صديقه في قصره، ليهدم سعادة ذلك القصر، ويدكّ هناء صاحب القصر، ويطعن كرامته المثناف، ويثخن شرفه الأثيل بالجراح.

ومنذ تلك الليلة أصبحت زوجة جميل الحارس عشيقة ناصر الجوال.

وأصبح لجميل الحارس شريك في فراش زوجته وفي قلبها.

ومضى العاشقان في خيانتهما المزدوجة النكراء من دون أن يستمعا إلى صوت الضمير الصارخ كالعاصفة الهوجاء في الليالي المظلمة المدلهمة القفراء.

وعندما عاد جميل الحارس من رحلته حمل معه هديتين.

لقد حمل خاتماً ثميناً من ماس لزوجته، وساعة يد ذهبية غالية الثمن لناصر الجوال.

لقد حمل لهما ثمن خيانتهما، من دون أن يعلم ما كان منهما في شرفه الذي نهشاه وتركاه شظايا محطمة مهشمة مخضبة بالدم.

وتعدد تمثيل المأساة.

والبطلان هما هما، ناصر الجوال ونينا الحسناء.

والزوج غافل عمّا يجري في قصره من سفالة ودناءة وشرور.

فسارا خطوات بعيدة شاسعة في طريق الخيانة. وغرقا في غرامهما الأثيم، فلم تعد نينا لتطيق بعاداً عن ناصر، ولا ناصر كان ليطيق فراق نينا لحظة واحدة.

وكانت رياح الهوى الأثيم تعصف بهما فتحجب عيونهما عن النور، وتسد آذانهما عن صوت الحق ونداء الضمير.

وبدأت نينا تفكر بالتخلّص من زوجها.

فهي تريد أن تكون لحبيبها ناصر.

ناصر وحده يحتلُّ قلبها ويسيطر على فؤادها ويملك عليها شعورها.

أما ذاك، زوجها جميل الحارس، فليست تطيق الإقامة قربه ولا النظر إليه، ليت الموت يضمه بجناحيه ويحجبه عن عينيها.

ليتها تخلص منه لتتزوج من ناصر.

وتهيم وإياه في عالم بعيد من الهوى والحب والغرام.

وانتظرت نينا مساعدة الموت، انتظرت أن يموت جميل لتنطلق في هواها الأثيم.

إلا أن الموت خيَّب آمالها. فما أسعفها وما لبَّى لها طلباً.

وبعد أن كان أملها بالموت يقف عند حد الفكرة الصماء انطلق إلى حدود التنفيذ.

لماذا لا تمد للموت يدها وتقوده إلى زوجها؟

الموت كالمرأة لا يلبّي الطلب إلا بعد إلحاح.

وهو جموح خائن مكار، تماماً مثلها، قد يتمناه الإنسان فينأى، وقد يخشاه فيقترب منه.

قد يكون الموت بعيداً عنا في حين نخاله على قيد خطوات منا.

وقد يكون قريباً منا في حين يخيَّل إلينا أنه بعيد بعيد.

وفي جلسة من جلساتها الأثيمة قرب ناصر، ألقت برأسها الجميل على صدره. وتمتمت بوجوم: ناصر، أنا أحبك يا ناصر، أحبك حباً عظيماً، حباً هائلاً مرعباً جامحاً لاهباً فياضاً، إذا قدر لنينا أن تبتعد عنك يا ناصر فثق أنها ستكون أقرب إلى القبر منها إلى الحياة. إذا خسرتك يوماً فلن أخسر حبيباً ولا عشيقاً فحسب، بل أنا سأخسر آمالي وأحلامي وقلبي وحياتي، وهل يستطيع الإنسان أن يحيا بلا أمل وبلا قلب وبلا حياة؟

قال ناصر: لماذا تفكرين بمثل هذا يا نينا؟ نحن لن نفترق أبداً يا حبيبتي.

فابتسمت ابتسامة واهية صفراء.

قالت: هذا كلام، كلام يا ناصر. الفراق نهاية كل حبيبين لا يرتبطان بوثاق الزواج. أنت لست زوجي، وأنا لست زوجتك. نحن عشيقان. والفراق على مقربة منا. سنستفيق من حلمنا الجميل على الحقيقة المرعبة، فإذا بك في واد، وإذا بي في آخر.

قال: لا تستسلمي لمثل هذه الأفكار المقلقة يا نينا. دعك من هذه الأوهام المخيفة يا حبيبتي.

قالت: هذه ليست أوهام، هذه حقائق يا ناصر، حقائق راهنة لا مجال لنقضها.

قال: فلندع الأيام والليالي تحل معضلاتنا. ما يعجز الإنسان عن حله تتكفل الأيام والليالي بحله، وما يشكل أمره على البشر، يتطوع الزمن لبسطه أمامهم ولكشف الأحجية لعيونهم.

قالت: الأيام والليالي بطيئة في سيرها، قد تحل المعضلة، ولكن قد يكون الحل في غير مصلحتنا. أنا أريد حلاً أرسمه أنا، وأرتاح إليه أنا، ويكون في مصلحتنا نحن الاثنين. يجب أن نحيا معاً حتى الموت، حتى الموت يا ناصر.

قال ناصر: ومن قال لك إننا لن نحيا معاً يا حبيبتي يا نينا؟

قالت بحزم: كل شيء حولي يقول لي هذا. يقول: «أنت لست لناصر الجوال يا نينا، ولا هو لك. غداً سيفتح زوجك عينيه على الحقيقة المرعبة المخيفة الهائلة. والويل كل الويل لك ولحبيبك ناصر الجوال».

قال بوجوم: وما العمل؟ ما العمل يا نينا؟

قالت: العمل هو أن نتخلص من زوجي.

فتساءل: نتخلص منه؟ كيف؟

فحدقت بعينيه وتمتمت بحزم: سنقتله.

وبغت ناصر.

ودهش ووجم وخاف.

وتمتم: ماذا؟ ماذا؟ ماذا تقولين يا نينا؟

قالت: هذا هو الطريق للوصول إلى إنقاذ حبنا يا ناصر، إذا شئت أن تحتفظ بي عليك أن تتخلص من جميل.

قال: ولكن جميلاً لم يسئ إلي ولم يؤذني، لقد كان لي الأب الحنون والأخ والصديق والرفيق. أبي لم يعطف علي عطف جميل الحارس، ولا جاد علي بما جاد جميل، فكيف تريدينني على قتله؟

قالت: كن واقعياً لا تهم بالضباب ولا تنغمس بالخيال. إذا تخلصنا من جميل عشنا معاً طيلة العمر. أمواله ستنتقل إلي بعد موته، وأنا سأنقلها إليك، فنبيع المصنع ونسافر إلى بلادك ونعيش هناك عيشاً هادئاً مطمئناً.

فلامست كلماتها الآمال في فؤاده.

هذا كل ما يرجوه ناصر الجوال ويتمناه. إنه ليروم العودة إلى الوطن غنياً، وها هي حبيبته نينا تحقق له ما يروم من دون تعب ولا عناء ولا بذل نقطة عرق.

وأدركت نينا أن كلامها لقي الارتياح لدى ناصر.

فأردفت: نحن متفقان على الخلاص من جميل. ولكن علينا أن نتخلص منه بطريقة لا تترك أثراً للجريمة. إذا اكتشف أمرنا كان الإعدام نصيبنا.

قال بعد تفكير طويل: لك ما تريدين يا حبيبتي يا نينا.

وراحا يفكران: كيف سيتخلصان من جميل الحارس؟ بالرصاص؟... بالخنق؟... بالخنجر؟...

لا، لا. كل هذه تترك وراءها آثاراً تقود إلى الإعدام.

بماذا إذن؟!

قال ناصر، وقد تحركت في قلبه بذور الشر: سأثب إليه وأغمد الخنجر في صدره وندعي أن اللصوص قتلوه.

ـ يا مجنون... قبل كل شيء يجب أن نفكر بإخفاء الجثة. جثة جميل الحارس يجب أن تختفي. إذا عثروا عليها قاموا بفحصها وبتشريحها. وفتحوا تحقيقاً واسعاً شاملاً عميقاً وقبضوا علينا وألحقونا به.

ـ وكيف تريدين إخفاء الجثة؟ وأين؟

قالت: الأمر بسيط. سنعلن أن جميلاً سافر إلى لبنان... منذ أمد بعيد وهو يعلن عزمه على السفر في رحلة طويلة إلى بلاده... وبعد ذهابه بأيام قليلة أعلن أنه أرسل لي رسالة يشير فيها إليّ ببيع القصر والمصنع. وأنا كما تعلم أملك حق توقيع معاملات زوجي كلها. فهو قد منحني هذا الحق. وأستطيع أن أوقع صكوك بيع القصر والمصنع.

قال: ولكن الجثة؟... كيف نخفيها؟ وأين؟

قالت: قبل أن تسأل مثل هذا السؤال، سل كيف سنقتله؟ سندس له السم. وندفنه هنا، هنا في هذا القصر.

قال: وكيف سندفنه في هذا القصر؟ وأين؟

قالت: لا تخف، لقد دبرت كل شيء. الليلة سندس له السم في الطعام، وعندما يسلم روحه إلى خالقها نحمل الجثة إلى القبو الأسفل، هناك في القبو الأسفل غرفة صغيرة جداً لا تكاد تتسع لوقوف إنسان، سندخل جثة جميل إلى الغرفة ثم نبني حائطاً متيناً... وفي اليوم التالي نشيع أن جميلاً سافر... وبعد شهر واحد نسافر نحن إلى لبنان.

وصمت ناصر الجوال.

الخطة حسنة.

ولكن هل يقدر لها النجاح؟... إذا نجحت خطة نينا أصبح بمدة وجيزة من كبار الأغنياء، أما إذا لم تنجح فالإعدام ينتظرهما معاً هو وحبيبته نينا.

وتمتمت نينا: ماذا يا ناصر؟ ألم تعجبك خطتي المرسومة؟

قال: كل ما تقوله حبيبتي نينا أوافق عليه، لك أن تأمري وعلي أن أطيع.

قالت: إذن إلى المساء. اذهب الآن وفي المساء سنتناول طعام العشاء لآخر مرة مع جميل الحارس. اطمئن... اطمئن يا حبيبي.

وذهب ناصر الجوال وهو يفكر.

يفكر بالجريمة المخيفة التي حاكت خيوطها حبيبته نينا.

واطمأن، فالمستقبل زاهر زاه أمامه.

كل شيء يقول له: «أنت غني أنت غني، المال والحلي والجواهر والخيرات ستتدفق بين يديك».

وأقام ناصر الجوال يرقب غياب الشمس.

إنه ليرقب هبوط الظلام.

والظلام كان ولا يزال رفيق اللصوص والمجرمين والأشقياء.

وكان المساء...

وجلس جميل الحارس وزوجته وضيفهما ناصر الجوال يتناولان طعام العشاء.

وكان ناصر على اضطراب.

أما نينا فكانت تراقب كل حركة وكل ابتسامة وكل كلمة تصدر عن حبيبها.

وكانت في الوقت نفسه تنظر إلى زوجها نظرات سريعة متقطعة.

وكان جميل الحارس فرحاً تلك الليلة.

كان يداعب زوجته ويمازح ناصراً.

وقامت نينا تقدم لزوجها طبقاً من الحلوى، وتقول: ذق هذا

النوع من الحلوى يا حبيبي جميل، هذا من صنع يدي. أنا هيأت لك هذه الحلوى بيدي.

وذاق جميل الحارس الحلوى.

وأثنى على مهارة زوجته في صنع الحلويات.

وما كادت الحلوى تستقر في جوفه حتى أسرع إلى الماء يغب منها ولا يرتوي.

ونظرت نينا إلى حبيبها ناصر على ارتياح.

وبدأ جميل الحارس يشعر بالألم يكوي أحشاءه.

واستنجد بزوجته.

وطلب إليها أن تدعو الطبيب حالاً.

إلا أن السيدة المحترمة أبت دعوة الطبيب.

وقالت له: لا تخف إنه ألم بسيط سيزول قريباً يا حبيبي يا جميل.

إلا أن الألم لم يزل.

وغاب جميل الحارس عن رشده.

وبدأ يحتضر.

ولم يطل احتضاره.

فنظر إلى زوجته وهو يغادر هذه الحياة ليشاهدها تعانق ناصراً على فسق وفجور...

وتمتم جميل الحارس، وهو يلفظ أنفاسه: «نينا يا مجرمة. . . سأنتقم منك انتقاماً رهيباً».

ومات، مات جميل الحارس وهو ينظر إلى خيانة زوجته ونذالة صديقه وظلت عيناه عالقتين بهما، بالاثنين بناصر وبنينا. وظلت كلماته الأخيرة ترن في أذن الزوجة الخائنة: «نينا يا مجرمة سأنتقم منك انتقاماً رهيباً».

وعندما أيقنت الزوجة المجرمة وعشيقها الشرير أن جميلاً أسلم روحه، حملاه إلى سريره.

وجلسا ينتظران نوم الخدم لينفذا ما بقي من خطوط الخطة المرسومة.

ونام الخدم.

وأطفئت الأنوار في قصر جميل الحارس.

فقام ناصر الجوال يحمل جثة جميل الحارس ويدلف بها إلى القبو السفلي.

وسارت نينا أمامه ترشده إلى الطريق.

وهناك في الغرفة الصغيرة في القبو السفلي، وضع المجرمان جثة جميل.

وكانت نينا قد هيأت ما يلزم لبناء الحائط منذ الصباح.

فراح ناصر الجوال يبني الحائط بجد وهمة ونشاط.

وفي اليوم التالي طردت نينا جميع الخدم.

واستبدلتهم بخدم جدد لئلا يكتشف أحد منهم قصة بناء الحائط في القبو السفلي.

ونام الاثنان على حرير وثير.

وانصرفا إلى احتساء خمرة الجريمة والفسق والفجور، من دون أن يردعهما ضميرهما، ومن دون أن ينتصب شبح ضحيتهما أمامهما.

بلى. لقد كانت نينا ترى زوجها الصريع بعين خيالها من حين إلى آخر، وتسمع كلماته الأخيرة ترنّ في أذنيها: «نينا يا مجرمة. . . سأنتقم منك. . .».

وقلق الموظفون والعمال في مصنع جميل الحارس على سيدهم: ما بال السيد جميل الحارس لا يحضر إلى مكتبه في المصنع؟

وكان أشدّهم قلقاً المدير تجوي.

وأسرع تجوي إلى قصر سيده جميل الحارس يسأل عنه بعد غياب أسبوعين.

واستقبلته السيدة نينا بابتسامة زاهرة زاهية.

وقالت له: جميل سافر إلى لبنان منذ ثلاثة أسابيع تقريباً وقد وردتني رسالة اليوم تقول: «يجب أن تبيعي كل أملاكنا وتلحقي بي مع ناصر إلى لبنان حالاً».

ووجم تجوي. . .

سيده لم يطلعه على رغبته في السفر إلى لبنان.

وأظهر مخاوفه للسيدة نينا.

إلا أن نينا صرفته عن القلق.

وأكدت له أن زوجها في لبنان وأنها مضطرة لبيع المصنع والقصر واللحاق بزوجها.

واشتدّ وجوم تجوي.

وازداد قلقه: لم يكن السيد جميل يريد من أحد أن يفاتحه بأمر بيع مصنعه، ما باله يأمر اليوم ببيع المصنع والقصر؟

ووقف تجوي يقول لزوجة سيده: الذين يرغبون بشراء المصنع كثيرون يا سيدتي وهناك المنافسون الذين كانوا ولا يزالون يخشون منافسة مصنع الحارس. ولكنني لن أدع واحداً منهم يصل إلى ما يريد. أنا سأشتري المصنع وسيظل اسمه كما هو الآن: «مصنع جميل الحارس».

قالت: أنا لا أمانع بذلك يا تجوي ولكنني أريد أن أبيع القصر والمصنع معاً.

فوجم تجوي. هو لا يكاد يملك ثمن المصنع. فكيف يستطيع شراء المصنع والقصر معاً؟

وحاول تجوي إقناع السيدة نينا بأن تبيعه المصنع فقط.

إلا أن زوجة سيده أصرت على بيع المصنع والقصر.

وانصرف تجوي باحثاً عن شريك يشتري وإياه مصنع الحديد والقصر.

ووقع بعد بحث طويل على شريك ثري.

وتمت الصفقة. . . وتقاضت السيدة نينا ثمن المصنع والقصر.

وحزمت حقائبها. وحزم ناصر حقائبه. وحملا الثروة الضخمة وأسرعا بالسفر من نيويورك إلى لبنان قبل افتضاح جريمتهما المرعبة المخيفة النكراء.

الفصل الخامس

مضت الأيام سريعاً كما يمر البرق في الفضاء الرحيب الشاسع الواسع الأرجاء.

وانصرف تجوي إلى الاهتمام بمصنعه وبتحسين حال عماله.

وتدفقت الأرباح بين يديه ويدي شريكه في المصنع.

وأقام تجوي في قصره، في قصر جميل الحارس، الذي اشتراه من السيدة نينا.

إلا أن أحداثاً غريبة كانت تقع في ذلك القصر فتقلق خاطر تجوي.

لقد كان يسمع كلما رقد في سريره في القصر، همسات تتعالى رويداً رويداً وكأنها همسات سيده بالأمس جميل الحارس.

وكلما أغمض عينيه رأى سيده جميل الحارس جثة هامدة جاحظة العينين صفراء اللون.

وينهض مرعباً.

ويركع ويصلي إلى الله القوي القدير طالباً إليه إبعاد هذه الأحلام المزعجة المرعبة المخيفة.

ويعود إلى النوم لتعود الأحلام المروعة إلى الانسياق في رأسه.

وينهض ويجلس في سريره لا يستطيع إلى الرقاد سبيلاً.

فكأن ثمة جريمة دامية تمثل في ذلك القصر الشامخ المنيف.

وذات يوم، فيما يتفقد زجاجات الخمر في القبو الأسفل لاح له أثر حائط بني حديثاً.

ووقف يتأمل ذلك الحائط.

وكأن ثمة قوة هائلة كانت تدفعه إلى إطالة النظر في ذلك الحائط.

ودعا إليه عماله. وطلب إليهم أن يهدموا ذلك الحائط. فهو يريد أن يعرف لماذا بني هذا الحائط وماذا يخفي وراءه.

وبدأ العمال العمل. وهدموا الحائط ليقفوا مذعورين.

فقد وجدوا جثة رجل ملقاة وراء الحائط.

ووثب تجوي إلى الجثة ليرتد مذعوراً.

هذا هو سيده جميل الحارس، سيده؟...

لا، جثة سيده.

ووقف تجوي مشدوهاً أمام الجثة.

ولم يكن التلف قد تسرب إليها.

السم الذي تناوله جميل الحارس دفع عن جسده الفناء مدة طويلة.

واضطرب تجوي، وعيناه تقعان على جثة سيده.

وأدرك أن ثمة جريمة مروعة، سيده لم يمت موتاً طبيعياً. زوجته المجرمة قتلته لتلحق بعشيقها ناصر الجوال إلى لبنان.

وأسرع تجوي إلى السلطات والدمعة في عينيه يطلعها على الأمر. يجب أن ينتقموا للدم البريء. جميل الحارس لن يذهب رخيصاً. دم بدم.

وبدأت السلطات تحقيقاتها.

واكتشفت أن جميل الحارس مات مسموماً وأن زوجته صرعته.

وأدرك تجوي أن تحقيقات السلطات ستمتد مع الأيام إلى أبعد من الأيام.

وربما أفلتت نينا وعشيقها من الانتقام.

وعزم تجوي على أن ينتقم لسيده الصريع، جميل الحارس أنقذ حياته من الموت. لقد أنقذه من الإعدام وعليه أن يرد له الجميل.

وأسرع إلى الطائرة يستقلها إلى لبنان.

سيلحق بهما، بناصر الجوال وبعشيقته نينا فيصرعهما ويعود إلى بلاده.

وما إن حطت الطائرة في مطار بيروت الدولي حتى كان تجوي يثب منها وينطلق باحثاً عن ناصر الجوال وعشيقته نينا.

ولم يطل بحثه: ناصر الجوال صاحب معمل الحديد القائم في ضواحي بيروت على عظمة وشهرة وشموخ، الكل يعرفه في بيروت، وفي ضواحي بيروت.

إنه ليقيم في قصر منيف مع زوجته نينا في غابة خضراء وارفة الظلال.

وأسرع إلى قصر ناصر الجوال يطرق الباب.

وأقبل الخادم يفتح الباب.

فبادره تجوي بقوله: السيدة نينا؟ أين هي؟

والخادم لا يعرف من اللغة الإنكليزية سوى بعض الكلمات القليلة تعلمها من سيدته نينا.

وقاده إلى غرفة الاستقبال، وأسرع يدعو سيدته إليه.

وأطلت نينا.

وما إن وقع نظرها على تجوي حتى أخذت ترتجف من الخوف، وكأن قلبها أنبأها بأن ساعتها قد دنت.

- تجوي! . . . ماذا جاء بك إلى هنا؟

ووقف تجوي، واستل خنجره المصقول.

ووثب إليها يمسك بمعطفها ويهدر: أنت قتلت زوجك سيدي جميل الحارس وأنا سأنتقم له منك. هو الذي دعاني للانتقام. إنه انتقام الميت يا مجرمة.

ـ تجوي! تجوي!... لا، لا، لا تقتلني يا تجوي... إلي! إلي!...

إلا أن تجوي كان قد طعنها في عنقها طعنة واحدة كانت كافية لقتلها.

وأسرع ناصر الجوال محاولاً الدفاع عن نينا إلا أن تجوي بادره بطعنة.. طعنة في عنقه، إنه اختصاصي في النحر.

وأطبق الخدم عليه. ونشبت معركة بينهم وبينه، تمكن خلالها من الإفلات... وخرج من القصر يعدو هارباً.

وأقبل رجال الدرك يطاردونه وينذرونه بإطلاق النار...

ولم يقف فأطلقوا النار عليه وأصابوه في ظهره فوقع يتخبط بدمه.

وأسرعوا إليه ينقلونه إلى المستشفى.

وهناك في المستشفى روى للمحقق قصته كلها.

ولفظ أنفاسه وهو يتمتم: «سيدي جميل!... لقد انتقمت لك قبل أن أموت... إلى اللقاء... إلى اللقاء».

ومن القصر الشاهق الشامخ المنيف خرجت جثتان دفعة واحدة إلى المقبرة: جثة ناصر الجوال وجثة نينا.

لم يرض جميل الحارس أن يعيش وحده في العالم الفاني، فدعا إليه الجميع: زوجته وناصراً الجوال وتجوي.

وقرت عيناه في ضريحه...

لقد انتقم...

لقد قال لزوجته وهو يلفظ أنفاسه: «يا مجرمة سأنتقم منك انتقاماً هائلاً...».

وقد «برَّ بوعده» وانتقم...

قلب من حجر

الفصل الأول

لفح الصيف الجميل المدن والقرى الإيطالية بسعيره المتقد اللاهب الشديد.

فهرع الإيطاليون إلى الجبال العالية ينعمون فيها بالنسيم العليل والهواء المبرد البليل.

ومنهم من لجأ إلى الشواطئ الساجية الممتدة على الساحل الإيطالي الفسيح الأرجاء ينعمون فيها بنسائم البحر العطرة، وبأمواجه الساجية، وبرماله المبسوطة كأنها صفحة من الفضاء الواسع الرحيب.

وتدفق أبناء المدن الإيطالية إلى الشواطئ، رجالاً ونساء وأطفالاً، يلقون بأجسادهم المحمومة بين أحضان الأمواج الساجية، يحاربون بها الصيف الحار، الملتهب الأنفاس...

وهناك على ذلك الشاطئ الفسيح الممتد شرقي مدينة نابولي، كان المستحمون والمستحمات يداعبون الأمواج ويلقون بأنفسهم بين أحضانها الهانئة الباسمة السمحاء.

حتى إذا ما أتعبتهم مداعبة الأمواج تراجعوا إلى الشاطئ الباسم يتمددون فوق رماله تاركين لنسيم البحر العليل اليد في مداعبة تلك الأجسام المبللة بالمياه...

وهناك فوق الرمال الباسمة السمراء، بعيداً عن المستحمين والمستحمات، تمدد شاب وسيم جميل، طويل القامة، عامر الصدر، عريض المنكبين، أسود الشعر، فوق الرمال.

وراح يداعب حبات الرمل بيده. ويرسم على صفحتها رسوماً وخطوطاً لا شكل لها ولا معنى ولا لون.

وفيما رفاقه الشبان يندفعون نحو الصبايا المستحمات محاولين لفتهم إلى جمالهم وشبابهم ووسامتهم، كان ذلك الشاب منصرفاً عن المستحمات إلى مداعبة الرمال والتمتع بهواء البحر العليل...

وفجأة أطلت فتاة في مطلع الربيع.

واقتربت من ذلك الشاب عفواً لتتمدد قربه فوق الرمال...

وكانت الفتاة تلك في الثامنة أو في التاسعة عشرة من العمر.

لم تكن قد تخطت العشرين بعد...

ولاح منها أنها لا تهتم بجارها الشاب الوسيم.

بل هي تمددت فوق الرمال، بعد أن نالت قسطاً وافراً من الاستحمام، وبعد أن أعيتها مكافحة الأمواج، وأنهكها الغوص تحت المياه...

ولفتت الحسناء الشاب الوسيم إليها، وقد كان منذ قليل منشغلاً عن جميع السابحات بمداعبة الرمال.

وراح الشاب يحدق بها، وقد خيل إليه أن وسامته ستلفتها إليه.

إلا أنه كان على ضلال، فالفتاة الحسناء لم تكن لتعيره أي اهتمام. وحنق الشاب على تلك الفتاة المتمردة المتكبرة الحرون التي تأبى أن تنزل من عليائها وتتنازل لتجود عليه بنظرة أو بابتسامة.

وأبى أن يتراجع.

أبى أن يقنع بما ناله منها.

فراح يغني أغنية إيطالية شعبية شائعة: «أيها الغزال الشرود. لن تنجو من الوقوع في الشرك. فالصائدون كثيرون، والطريق بعيد، وهو محفوف بالأشواك والأدغال. وأنت أعزل لا سلاح ولا قوة ولا بأس، أيها الغزال الشرود».

وخيل إليه أن الفتاة الحسناء ستلتفت إليه، وقد وقع اللحن الطروب في أذنيها.

إلا أنه كان على خطأ.

فالفتاة مضت في عنادها.

وراحت تحدق بالأفق البعيد من دون أن تعيره أي اهتمام.

فكأنها صماء لا تسمع ما تتمتم شفتاه. . .

وانطلق الشاب الوسيم في الغناء.

فراح ينشد المقطع الثاني من الأغنية: «أيها الغزال الشرود. أبحث عن رفيق يخفف عنك وحشة الطريق، ويحميك من النبال والحراب. رفيق حبيب تلقي برأسك الجميل إلى صدره. يدك بيده، وطريقك طريقه، يبكي إذ بكيت، يبتسم إذا ابتسمت. يهبك كل ما لديه من حب وعطف وشوق وحنين، فالطريق بعيد، بعيد بعيد، وأنت لن تستطيع المسير وحدك في الطريق. لن تبلغ نهاية السبيل وحيداً. أين الصديق الصدوق؟ أين الحبيب الوفي؟ إنه هنا، أمامك، معك، عندك. . . يدك بيده، سيرا معاً في الطريق، أيها الغزال الشرود».

ولم ترفع الفتاة نظرها عن الأفق البعيد إلا لتحدق بالأمواج.

وانقلب الحقد في قلب الشاب الوسيم، وقد أدرك أن غناءه لم يستطع أن يدير رأس الفتاة الحسناء إليه، إلى غضب.

فنهض، ووقف. وسار إليها، وقد عزم على أن يخاطبها وجهاً لوجه. . .

واقترب الشاب من الفتاة الحسناء ليقول: أسعد الله نهارك يا آنستي اللطيفة.

والتفتت الفتاة إليه. ورمقته بنظرة بلهاء لا معنى لها ولا لون. ولم تجب.

فأعاد عليها التحية: أسعد الله نهارك أيتها الآنسة اللطيفة.

وعادت الفتاة الرائعة الجمال لترمقه بنظرة عميقة، نظرة اخترقت أعماق قلبه.

وهمست: ليكن نهارك سعيداً.

وشجعته كلماتها القليلة على الاقتراب منها.

واقترب منها ثانية ليقول: ألبرتو دوزميتي.

وهمست الفتاة: تشرفنا.

كلمة واحدة.

واحدة فقط «تشرفنا. . .» وقال الشاب: هل لي أن أتشرف بمعرفة اسمك؟

ولم تجب الفتاة بحرف. بل هي نهضت، وسارت مبتعدة عنه. . .

ووقف ألبرتو يرمقها بنظرات ملؤها الحب والعطف والحنان.

لقد استطاعت هذه الفتاة الصغيرة أن تشغل تفكيره، وأن تثير اهتمامه، بما أبدت من إبهام وغموض.

فهو لم يعرف اسمها، ولم يعرف من هي، ولم يعرف اسم أسرتها. لم يعرف شيئاً عنها.

لقد تسرع ساعة أعلن لها اسمه قبل أن يقف منها على اسمها.

ليته تريث حتى يجلو غموضها، ويكشف عن حقيقتها.

غموضها أثاره، وصمتها العميق بعث في قلبه الشوق والحنين إليها. . .

والحقيقة هي أن أي فتاة تستطيع أن تثير اهتمام أي شاب إذا لجأت إلى الغموض والإبهام.

فالشبان يثيرهم الغموض، وهم الطامعون أبداً في اكتشاف الأسرار وجلاء الغوامض.

وإذا شاءت الفتاة، أي فتاة، أن تجذب الشاب إليها وأن توقعه في الشرك، عليها أن تحيط نفسها بستار كثيف من الغموض والإبهام.

وطالت وقفة ألبرتو دوزميتي على الشاطئ الساجي الرحيب.

وراح ينظر إلى الفتاة الغامضة وهي تتوارى عنه.

وشاهدها تدخل إلى «الكابين»، لتنتزع عنها ثياب الاستحمام ثم ترتدي ثيابها، وتخرج من الغرفة الصغيرة.

وخيل إليه أنها ستعود لتجلس قربه على الشاطئ. إلا أنه كان على خطإ. فالفتاة حملت حقيبتها وسارت. . . وغادرت الشاطئ من دون أن تجود على الشاب الوسيم بنظرة أو بابتسامة.

وشخص ألبرتو إلى مدير المسبح يسأله: من هي هذه الفتاة التي كانت تحتل الكابين رقم 27؟

وتساءل مدير المسبح: الفتاة الحسناء التي كانت ترتدي المايوه الأحمر؟

قال ألبرتو: هي نفسها.

وهمس مدير المسبح: لدي أوامر من مجلس الإدارة بأن لا أعلن أسماء السابحات للسابحين.

وابتسم ألبرتو.

وسار إلى غرفته الصغيرة في المسبح ليتناول من جيبه ورقة نقدية.

ثم يعود إلى مدير المسبح فيدس الورقة في يده قائلاً: أنا لن أبوح باسمها لأحد. لن يعلم أحد أنك أطلعتني على اسمها.

وابتسم المدير للورقة النقدية.

وفتح دفتراً كبيراً أمامه ليقرأ على مسمع ألبرتو: الفتاة التي تحتل الغرفة رقم 27 اسمها سيلفانا.

وتمتم ألبرتو: سيلفانا؟. . . سيلفانا فقط؟. . . واسم أسرتها؟

قال المدير: هي لم تعلن عن اسم أسرتها. ونحن كما تعلم أيها السيد ألبرتو لا نجبر زبائننا على تسجيل أسمائهم بكاملها في سجلاتنا. . .

وشكر ألبرتو لمدير المسبح خدمته.

وانصرف، انصرف ليفكر بالفتاة الهيفاء الرائعة الحسن والجمال. . .

وفي اليوم التالي أبكر ألبرتو في الحضور إلى الشاطئ الباسم، وقد أراد أن ينتظر حضور سيلفانا.

من المؤكد أن سيلفانا ستحضر إلى المسبح.

وسيراها ويتحدث إليها.

لن يدعها تذهب اليوم كما ذهبت أمس من دون أن يظفر منها بكلمة.

بكلمة؟ لا بل بحديث طويل. . .

ووصل إلى الشاطئ.

وعقدت الدهشة لسانه وهو يرى سيلفانا ممدة بثوبها الأحمر فوق الرمال.

إذن هي سبقته إلى الشاطئ ووصلت قبله.

وشعر ألبرتو بنبضات قلبه تتصاعد على سرعة واندفاع.

واحتار في أمره.

ماذا عليه أن يفعل؟

هل يتقدم منها؟ أم يبتعد عنها؟

هل يتحدث إليها؟

هل يمر بها من دون أن يحييها؟

هل يتجاهلها؟

ليس يدري، ليس يدري. . .

وطال وقوفه بعيداً عنها وهو مضطرب القلب ثائر الهواجس متعب الأفكار. . .

وأخيراً بعد وقفة طويلة وتفكير عميق رأى نفسه يسير إليها بخطوات متئدة واهية.

واقترب منها. فلم تلتفت إليه.

وحياها: صباح الخير أيتها الآنسة سيلفانا.

وانتفضت الفتاة الحسناء، وحولت نظرها إليه، وارتسمت على وجهها علائم الدهشة والاستغراب.

ولم ترد التحية. بل هي تمتمت: كيف عرفت اسمي؟

وابتسم ألبرتو. وعاد إلى الاقتراب منها ليقول مجدداً: صباح الخير.

وأعادت سيلفانا السؤال: كيف عرفت اسمي؟

قال: من جدَّ وجد. جددت وراء اسمك فوجدته.

وصمتت سيلفانا.

وصمت أيضاً ألبرتو.

وطال صمتهما من دون أن ينبس أحدهما بحرف.

وأخيراً قطع ألبرتو حبل الصمت الطويل بقوله: هل تسمحين لي بالجلوس؟

ولم تجب سيلفانا.

واتخذ ألبرتو من صمتها جواباً بالإيجاب.

وجلس قربها واستأنف الهمس: أيزعجك جلوسي هنا؟

ولم تجب. بل هي مضت في صمتها العميق القرار.

واكتفت سيلفانا بالنظر، فراحت ترمق ألبرتو بنظرات سريعة يغمرها الحنين، ويسكب الشوق عليها وشاحاً من الارتياح.

واطمأن ألبرتو إلى نظراتها الولهى.

وهمس: يبدو أنك لم تنزلي إلى البحر. سننزل معاً. سأبدل ثيابي وأعود إليك فوراً. انتظريني هنا يا سيلفانا.

ولم تخرج سيلفانا عن صمتها العميق.

بل هي راحت تحدق بالأفق البعيد من دون أن تنبس بحرف...

وأسرع ألبرتو إلى كابينه، ينزع عنه ثيابه ويرتدي ثوب البحر.

ثم يعود مسرعاً إلى حيث ترك الفتاة الحسناء.

وكانت سيلفانا لا تزال ممددة فوق الرمال وعيناها عالقتان بالأفق البعيد.

وهمس ألبرتو: تعالي معي.

ولم تجب، بل هي نهضت وسارت قربه نحو البحر...

وحاول ألبرتو أن يمسك يدها ويثب وإياها إلى الأمواج الزرقاء المندفعة نحو الشاطئ الرحيب بشوق وحنين.

إلا أنها ابتعدت عنه بخوف وذعر.

ورمت بنفسها بين أحضان الأمواج...

ووثب ألبرتو وراءها إلى البحر.

وراحا يستحمان ويسبحان.

إلا أن سيلفانا لم تكن لتسمح للشاب الوسيم بأن يقترب منها.

كلما اقترب منها ابتعدت عنه.

فكأنها تخشاه وتخافه...

وانقطع ألبرتو أخيراً عن مطاردتها بعد أن رآها تتعمّد الابتعاد عنه...

وراح ألبرتو يسبح مبتعداً عنها...

وأخذ يراقبها من بعيد...

وكان المستحمون والمستحمات قد بدأوا يفدون إلى الشاطئ ويغشون الأمواج.

وخيل لألبرتو أن بين المستحمين صديقاً أو حبيباً للفتاة، وأنها تخشاه.

ومضى في مراقبتها.

إلا أنه لم يستطع أن يثبت صحة هواجسه وأفكاره.

لم تكن سيلفانا لتنظر إلى أحد، ولا لتتحدث إلى أحد، فكأنها غريبة بين رواد الشاطئ الفسيح الأرجاء . . .

وعادت سيلفانا إلى الشاطئ بعد أن أنهكها التعب. وعاد معها ألبرتو أيضاً.

وارتمت فوق الرمال. وتمدد ألبرتو قربها.

وهمس: البحر دافئ الأمواج، حلو النسائم يا سيلفانا.

ولم تجب سيلفانا. بل هي اكتفت بأن ترمق ألبرتو بنظرة ارتياح . . .

واستأنف ألبرتو الكلام ليقول: هل ستقضين طيلة النهار هنا يا سيلفانا؟

كان يريد أن يحملها على الكلام، أن يسمع صوتها.

وهمست سيلفانا: لا . . .

كلمة واحدة: «لا . . .».

قال ألبرتو: متى ستعودين إلى الدار؟

وهمست: عند الظهر.

قال: وهل ستعودين إلى هنا بعد الظهر؟

وتمتمت: ربما . . .

كانت سيلفانا من نصيرات الإيجاز في الكلام. فهي لا تنطق بسوى كلمة أو كلمتين. وهذا ما كان يضايق ألبرتو كل المضايقة. وهذا أيضاً ما جعل النار تتقد في قلبه. وما أهاب بأفكاره إلى الانصراف عن أي تفكير لتحط عند سيلفانا الحسناء . . .

وعندما حان الظهر وانتصف النهار، نهضت سيلفانا لتدخل إلى «كابينها» فترتدي ثيابها وتسير من دون أن تلتفت إلى ألبرتو ومن دون أن تودعه ومن دون أن تخصه بنظرة أو ببسمة أو بكلمة وداع . . .

واحتار ألبرتو دوزميتي في أمره.

أتكون سيلفانا مرتاحة إليه؟

أتكون راضية عنه؟

أتكون متضايقة منه؟

ليس يدري . . .

فهي لا تتكلم ولا تفسح عما يدور في رأسها من أفكار . . .

وأقام ينتظر عودتها بفارغ صبر.

من المؤكد أنها ستتناول طعام الغداء وتعود إلى الشاطئ الفسيح الرحيب.

إلا أن انتظاره طال، وسيلفانا لم يبن لها أثر.

وانقضى النهار، وألبرتو دوزميتي ما زال على الشاطئ ينتظر عودة سيلفانا.

وسيلفانا لا تطل...

وبدأت الشمس تتأهب للانحدار وراء الأفق البعيد مخضبة مياه البحر وأمواجه بلونها الأحمر الواهي الضئيل.

وأدرك ألبرتو أن سيلفانا لن تعود...

وشعر بضيق شديد في صدره.

وأحسّ بالظلام يغمر حناياه.

ونهض ليرتدي ثيابه، ويعود أدراجه إلى داره الصغيرة القريبة من الشاطئ.

ولم ينم ألبرتو طيلة ذلك الليل.

بل هو استلقى في سريره ليفكر بالفتاة الحسناء، بسيلفانا التي استطاعت أن تشغل قلبه، وأن تثير اهتمامه، وأن تبعث إلى رأسه الهواجس والأوهام.

ولم يستطع ألبرتو أن ينام.

لم يستطع أن يغمض أجفانه إلا والفجر قد بدأ يسكب أنواره الواهية على إيطاليا.

ونام ألبرتو.

نام ليشاهد سيلفانا في الحلم مقبلة نحوه، وهي تبتسم له...

وأمسك يدها يشدها هامساً في أذنها: «أحبك يا سيلفانا».

وسمعها، في الحلم، تهمس في أذنه: «ألبرتو... إنني لأشعر بما تشعر أنت، تفكيرك هو تفكيري».

قال: «سيلفانا! يجب أن نظل معاً. معاً إلى الأبد يا حبيبتي».

ولم تجب، بل هي أطلقت ابتسامة زاهرة زاهية، ورمقته بنظرة حالمة باسمة، وسارت في سبيلها.

واستفاق ألبرتو من حلمه. فإذا بالشمس تملأ حنايا الغرفة الصغيرة.

ووثب من السرير ليرتدي ثيابه على عجل ويخرج من غرفته ويتجه نحو الشاطئ.

وشاهدها هناك.

كانت سيلفانا ممددة بثوبها البحري الأحمر فوق الرمال.

ووثب إليها يحييها: صباح الخير يا سيلفانا...

وهمست الفتاة الحسناء: صباح الخير.

لقد ردت التحية هذه المرة.

وسار ألبرتو إلى «الكابين» يبدل ثيابه ويعود إليها ليتمدّد قربها.

وهمس في أذنها: سيلفانا! كيف حالك اليوم؟

همست: بخير والحمد لله.

قال: أنا لم أتشرّف بمعرفة اسمك الكامل يا سيلفانا؟

وهمست: لماذا لا تسل مدير المسبح عن اسمي الكامل؟

يا للعينة الخبيثة.

لقد علمت أن مدير المسبح أطلعه على اسمها.

وهمس ألبرتو بكل صراحة وبراءة: هو لا يعرف اسم أسرتك.

وتمتمت سيلفانا: خير لك، ولي أيضاً، أن لا تعرف اسم أسرتي.

وسألها: لماذا يا سيلفانا؟

فهمست: ماذا تريد من اسم أسرتي؟ ألا يكفيك أنك عرفت اسمي؟

قال: أريد أن أعرف اسم أسرتك؟ وأين تقيمين؟ وماذا تفعلين؟ أريد أن أعلم كل شيء، كل شيء عنك يا سيلفانا.

فهمست سيلفانا: وهل عرفت أنا شيئاً عنك؟ حتى اسمك فأنا ما زلت أجهله.

وابتسم ألبرتو. يبدو أن سيلفانا مهتمة به اهتمامه بها.

وهمس: تريدين أن تعرفي اسمي؟ لا بأس. أنا اسمي ألبرتو دوزميتي. أنا لست من نابولي ولا من جنوى ولا من روما ولا من أي مدينة إيطالية. أنا من قرية نائية بعيدة، من قرية إيطالية تجثم في أعالي الجبال. من قرية صغيرة اسمها «تورا» هل سمعت بهذا الاسم يا سيلفانا؟

فقلبت سيلفانا الحسناء شفتيها وهمست: لا...

قال: جميع أبناء تورا مزارعون، إن قريتنا تنتج العنب والتفاح والقمح وسائر أنواع الأثمار والحنطة والحبوب، أما أنا فقد أبيت أن أكون مزارعاً مثل والدي وأبناء قريتي، وجنحت إلى العلم أقتبس منه، واستطعت أن أقنع والدي بالابتعاد عن القرية والنزوح إلى المدينة، ونزحت وأكملت علومي في معاهد نابولي الكبرى. ثم درست الهندسة وأصبحت مهندساً. أنا الآن مهندس ناشئ أعمل في إحدى شركات المقاولات بمرتب يكفيني ويزيد عن حاجتي. والعمل في الشركة ليس متعباً يا سيلفانا. أنا أعمل في الشركة ثلاث ساعات كل يوم، هذا في أيام الصيف، أما خلال الشتاء فأنا أعمل سبع ساعات كل يوم، لقد استأجرت غرفة هنا، بالقرب من هذا الشاطئ لأظل قريباً من البحر ومن مكان عملي. إن مكاتب الشركة التي أعمل فيها قريبة من هنا، هي لا تبعد إلا القليل عن رمال هذا الشاطئ الساجي الجميل.

وهمست سيلفانا: أتعيش وحدك هنا؟

فأجاب: أجل. إنني لأعيش وحدي.

وعاد الصمت يخيم عليهما.

وراحت سيلفانا تحدق بأمواج البحر وهي تفكر.

وراح ألبرتو يراقبها بطرف خفي: ترى بماذا تفكر سيلفانا؟...

واستأنف الشاب الكلام بعد قليل ليقول: سيلفانا!... هل أستطيع أن أعلم كل شيء عنك كما علمت أنت كل شيء عني؟

وهمست سيلفانا: ليس الآن يا ألبرتو... ليس الآن، لم يحن الوقت بعد لتعرف كل شيء عني.

فهمس ألبرتو: لماذا يا سيلفانا؟...

ولم تجب سيلفانا على سؤال ألبرتو.

بل هي وقفت قائلة: تعال معي إلى البحر يا ألبرتو.

ووقف ألبرتو. وسار معها إلى البحر.

وألقى بنفسه بين الأمواج، وغاصت سيلفانا في الماء. وراحا يسبحان ويتمازحان. لم تبتعد عنه هذه المرة، بل هي ظلت قربه. وراحا يداعبان الأمواج معاً.

وخرجا من البحر بعد ساعات قليلة وهما يضحكان...

وشخصت سيلفانا إلى غرفتها. فارتدت ثيابها، في حين كان ألبرتو يرتدي هو أيضاً ثيابه.

وخرجا، كل منهما خرج من غرفته.

وقال ألبرتو: إلى أين أنت ذاهبة يا سيلفانا؟

فأجابت: سأعود إلى الدار.

قال: هل أستطيع أن أرافقك؟

وتجهم وجهها، وقطبت حاجبيها، وتمتمت: لا. لا أرجوك. سأراك غداً هنا. هنا على الشاطئ يا ألبرتو. إلى اللقاء. إلى اللقاء.

وصافحته. وسارت...

ووقف ألبرتو يشيعها بنظرة حب وعطف وشوق وحنان.

ومنذ ذلك اليوم أصبح ألبرتو وسيلفانا صديقين حميمين.

ولم تلبث الصداقة في قلبهما أن انقلبت إلى حب جارف.

حب قوي شديد لاهب عاصف.

فلم تعد سيلفانا لتطيق بعاداً عن ألبرتو.

ولم يعد ألبرتو ليطيق بعاداً عن سيلفانا.

وكانا يجتمعان كل يوم على الشاطئ الفسيح الأرجاء الواسع الرحيب.

ويقضيان ساعات النهار معاً، وعند الغروب يفترقان على أمل اللقاء في الغد...

ومضت الأيام، والحبيبان يعيشان في سعادة وهناء. إلا أن سيلفانا كانت دائمة الأسى. وكانت الدموع تترقرق في عينيها كلما حانت ساعة الفراق. كانت وهي تعود إلى دارها كأنها تعود إلى السجن.

وسألها ألبرتو مراراً عديدة: لماذا أنت دامعة العين كسيرة الخاطر مهيضة الجناح؟

وتبتسم سيلفانا من خلال دموعها.

وتهمس: أبداً لا شيء يا حبيبي؟

ويهمس ألبرتو في أذنها: إنني أرى الدموع في عينيك يا سيلفانا.

وتقول سيلفانا: لا. أنت واهم يا حبيبي. أنا سعيدة، سعيدة بحبك وبقربك يا حياة سيلفانا.

وكثيراً ما يسألها عن أهلها: من هو أبوك؟ من هي أمك؟ أين تقع داركم يا سيلفانا؟

وتجيب سيلفانا والدموع في عينيها: دعك من هذه الأسئلة الآن. لم يحن الوقت للإجابة على هذه الأسئلة يا حبيبي.

ويصمت ألبرتو نزولاً عند طلب حبيبته سيلفانا. فهو لا يريد أن يحرج موقفها: لا يريد أن يرغمها على الإجابة. لا يريد أن يجرح شعورها.

وكان لا بد من معرفة الحقيقة. كان لا بد من أن يكشف ألبرتو سر حبيبته سيلفانا.

ويزغ ذلك اليوم.

كان ذلك في يوم من أيام شهر آب المحرق الملتهب الأنفاس.

لقد جاءت سيلفانا في ذلك اليوم إلى حبيبها ألبرتو والدموع في عينيها. وكانت خائفة مضطربة قلقة.

فأمسك ألبرتو يدها ليقول: سيلفانا!... ما بك يا حبيبتي؟

ولم تجب سيلفانا بحرف.

وأعاد ألبرتو عليها السؤال: ما بك يا سيلفانا؟...

ومسحت سيلفانا الحسناء دموعها بمنديلها الوردي.

وهمست: لا شيء. لا شيء يا حبيبي.

قال ألبرتو: ألم يحن الوقت بعد للإفصاح عن أسرارك يا سيلفانا؟

وهمست سيلفانا: لا، لا، لم يحن الوقت بعد يا ألبرتو.

قال: ألست أنا حبيبك، حبيبك المخلص يا سيلفانا؟

قالت: وهل تشك بهذه الحقيقة الناصعة البياض يا ألبرتو؟

قال: لماذا إذن تخفين عن حبيبك أسرارك يا سيلفانا؟ وهل أخفيت عنك أنا أسراري يا حبيبتي؟

قالت: إذا كنت تثق بي، وإذا كنت تحبني فلا تسلني مثل هذه الأسئلة. عندما يحين الوقت ستعلم كل شيء، كل شيء يا حبيبي.

ولم يكن ألبرتو يريد أن ينتظر حتى يحين الموعد للإفصاح عن أسرار سيلفانا. بل هو كان يريد أن يكشف تلك الأسرار الآن. كان يريد أن يعلم: من هي سيلفانا؟

هل هي طاهرة؟ هل هي شريفة؟

هل هي ابنة أسرة محترمة؟ هل هي ابنة أسرة متهتكة؟

من هي؟

هو يريد أن يعرف من هي، لا سيما بعد أن توغل في حبها وتورّط في هواها، وأصبح يفكر جدّياً بالزواج منها.

ورأى أن يكتشف أسرار سيلفانا بنفسه.

لن ينتظر منها أن تكشف له أسرارها.

ولكن كيف؟

كيف؟ هو سيعمد إلى مراقبتها؟

أيراقبها؟

أيتجسس عليها؟

أجل. أجل. سيراقبها مراقبة شديدة ويعرف عنها كل شيء.

من حقه أن يعرف أسرارها وهي حبيبته ومالكة زمام هواه، والمتربعة من قلبه في الصميم. . .

وارتاح ألبرتو إلى الفكرة الموفقة.

وانصرف يومذاك إلى مسامرة سيلفانا، وإلى مسايرتها والتودد إليها.

وسبحا معاً. وتمددا على الرمال. ورشفا المرطبات. وركضا معاً فوق الرمال ويده بيدها.

وعندما حانت ساعة الفراق طوقها بذراعيه وهمس في أذنها: أحبك، أحبك، أحبك يا سيلفانا.

وهمست سيلفانا وهي تلقي برأسها الجميل إلى صدره: يا حياتي. . .

وافترقا كعادتهما على أمل اللقاء في الغد.

وسارت سيلفانا ووقف ألبرتو يشيعها بنظرة حالمة ولهى. . .

وما إن ابتعدت عنه حتى سار في أثرها. . .

كان ألبرتو يريد أن يعرف أين تقيم سيلفانا.

أين هي دارها؟

وسارت باتجاه الربوة العالية الخضراء.

وسار ألبرتو بعيداً عنها بكل حذر وخشية واتئاد. . .

وتسلقت سيلفانا الربوة.

وكان ألبرتو في أثرها.

وتوغلت في الغابة الخضراء.

فتوغل ألبرتو وراءها.

ووصلت سيلفانا إلى قمة الربوة.

ولحق ألبرتو بها.

ثم انحدرت إلى السفح،

إلى ما وراء الربوة.

وانحدر ألبرتو وراءها.

وإذا به أمام سهل فسيح الأرجاء أخضر الحنايا رائع المنظر جميل فتان...

وكان ثمة قصر شاهق تحيط به حديقة غناء.

وشخصت سيلفانا إلى الحديقة.

ووقف ألبرتو وراء شجرة ضخمة وارفة الأغصان يراقبها.

وشاهدها تقترب من سور الحديقة العالي، ثم تشخص إلى آخر السور.

لم تشخص نحو البوابة الحديدية الكبيرة، بل هي شخصت إلى آخر السور.

وهناك، من كوة صغيرة في آخر السور تسللت سيلفانا إلى الحديقة...

ودهش ألبرتو وهو يشاهد سيلفانا تدخل إلى الحديقة من الكوة الصغيرة، لا من البوابة الكبيرة...

ورأى أن يمضي في المراقبة حتى النهاية، فتسلق الشجرة العالية ليطل منها على داخل الحديقة.

وشاهد سيلفانا تدخل إلى القصر.

وازداد دهشة: سيلفانا تقيم في قصر شامخ منيف.

ولكنها لا تدخل إلى حديقة القصر إلا متسلّلة.

لماذا؟

أتكون ابنة سيد القصر؟

أتكون عشيقته؟

أتكون خليلته؟

أتكون خادمة عنده؟

ليس يدري، ليس يدري...

وانحدر من الشجرة العالية ليتوغل في هواجسه وأفكاره المقلقة.

ودار في رأسه ألف سؤال وسؤال.

وهمس في سره: هي ليست خادمة في هذا القصر.

إن ثقافتها تشير إلى أنها ليست خادمة...

أتكون عشيقة سيد القصر؟

لا، إن تهذيبها يبعدها عن القيام بدور العشيقة.

أتكون ابنة صاحب القصر؟

لو أنها ابنته لاقتحمت الحديقة من بابها الكبير لا من الكوة الصغيرة متسللة تماماً كما يتسلل اللصوص...

من هي إذن؟ ليس يدري...

وشاهد ألبرتو رجلاً قروياً يقترب منه.

ورأى أن يستوضح الفلاح أمر ذلك القصر الشاهق المنيف.

فاعترض سبيل القروي.

وحيّاه...

ورد القروي التحية بكل وقار وتهذيب.

وسأل ألبرتو الفلاح: قصر من هذا القصر المنيف يا سيدي؟

وأجاب الفلاح: هذا القصر هو قصر الأمير باولو كومبانيني.

كومبانيني؟

هذا الاسم ليس بغريب عن ألبرتو دوزميتي.

أسرة كومبانيني من الأسر الإيطالية العريقة في المجد والشهرة والمال.

لقد أنبتت هذه الأسرة النواب والوزراء ورجال السياسة والمال والاقتصاد.

أتكون سيلفانا من بنات هذه الأسرة العريقة؟

إذا كانت سيلفانا من أسرة كومبانيني فقد ضاعت كل أحلامه العذاب.

من المؤكد أن أسرتها لن توافق على زواجها من مهندس صغير والده قروي مزارع وهو لا يملك شيئاً من أمجاد هذه الحياة ومن أموالها...

وسار ألبرتو يجر رجليه جراً وهو يفكر بجهد وعناء وعياء...

واشتدت به الهواجس، وأقلقته الأفكار السوداء، وعاد إلى غرفته ليستلقي على سريره ويمضي في تفكيره الممض المقلق الرهيب.

الفصل الثاني

«سيلفانا!... ما هي علاقتك بالأمير باولو كومبانيني»؟

وكان ألبرتو دوزميتي ممدداً على الرمال قرب سيلفانا، على الشاطئ الفسيح الأرجاء عندما ألقى عليها هذا السؤال.

وذعرت سيلفانا.

واستوت جالسة على الرمال السمراء لتقول: من قال لك ذلك؟

وقال ألبرتو: لم يقل لي أحد ذلك يا سيلفانا.

قالت بوجوم ووجل: وكيف عرفت هذا السر إذن يا ألبرتو؟

وأمسك ألبرتو يدها الباردة ليقول: سيلفانا. أرجو أن تسامحيني على ما بدر مني يا سيلفانا. أنا سأعترف لك بكل شيء. أنا لم أتعود أن أخفي عنك شيئاً يا حبيبتي. سأعترف لك بكل شيء، بكل شيء...

وصمتت سيلفانا.

وراحت تستمع إلى ألبرتو يقول: «كنت أريد أن أعرف كل شيء عنك، أريد أن أكشف أسرارك كلها، وكنت أنت تريدين أن تخفي عني هذه الأسرار. ولذلك فأنا قد تتبعت خطاك أمس ورافقتك، من دون أن تشعري بي من هنا إلى ما وراء هذه الربوة الخضراء، وشاهدتك تدخلين من الكوة الصغيرة في سور الحديقة إلى قصر آل كومبانيني».

وبدأت الدموع تنحدر غزيرة على وجنتي سيلفانا وقد أيقنت أن ألبرتو اكتشف سرها.

وخيّل للشاب الوسيم أن حبيبته سيلفانا ستثور عليه، وستغضب وتهرب منه بعد أن اعترف لها بجريمته.

إلا أنه دهش وقد رأى سيلفانا تلقي برأسها إلى صدره وتبكي...

وراحت يده تداعب خصلات شعرها الذهبي...

وهمس: لماذا تبكين يا سيلفانا؟ أأكون قد أسأت إلى شعورك يا حبيبتي؟

وهمست سيلفانا: لا يا ألبرتو، لا يا حبيبي. أنت لم تسئ إلى شعوري. كان من حقك أن تعلم كل شيء عن حبيبتك، وكنت أنا أنوي إطلاعك على كل شيء، ولكنني كنت أتحين الفرص السانحة لإطلاعك على هذه الأسرار. أما الآن وقد وقفت أنت بنفسك على بعضها فليس بالإمكان إخفاؤها عنك. سأبوح لك

بكل شيء. بكل شيء يا حبيبي. ولكن ليس هنا... تعالى معي. تعال معي إلى فوق إلى الغابة الخضراء الجاثمة على قمة هذه الربوة المتواضعة. تعال معي يا ألبرتو إلى هناك، إلى الغابة حيث لا تقع علينا عين ولا تسمع كلماتنا أذن. تعال. تعال.

وأمسكت يده وسارا معاً إلى القمة العالية الخضراء.

وهناك تحت أغصان شجرة وارفة الظلال جلست سيلفانا تروي لحبيبها ألبرتو أسرارها وخفاياها.

قالت: أنا يا ألبرتو ابنة شقيق الأمير باولو كومبانيني. إن الأمير باولو عمي. لقد قيل لي إن والدي مات وأنا طفلة صغيرة، وقد تعهدني عمي الأمير باولو وشقيقته عمتي روزيتا كومبانيني. ونشأت في قصر عمي كأنني غريبة. إن عمي يعاملني معاملة قاسية وزوجته الأميرة ماريا تشدّد الرقابة علي فكأنني لست من أسرة كومبانيني، كأنني خادمة في قصرهم، ما هناك سوى العمة روزيتا. عمتي روزيتا وحدها تعطف وتحنو علي وتخصني بعطفها وبحنانها... إن عمي لا يسمح لي بالخروج من القصر، إنه يريد أن يسجنني داخل أسوار قصره المنيف، ولذلك فقد ثقبت بنفسي سور الحديقة وبدأت أتسلل من القصر لأشخص إلى الشاطئ أنشق الهواء العليل وأنعم برياضة السباحة... ويخيل إلي أن العمة روزيتا تعرف أنني أتسلل من القصر، وهي تخفي هذا السر عن عمي... لو علم عمي باولو بأنني أغادر القصر كل يوم لقتلني...

وبكت سيلفانا، وهي تروي لحبيبها قصتها.

وراح ألبرتو يؤاسيها ويخفف عنها محاولاً إيجاد العذر لعمها في لجوئه إلى القسوة معها.

قال: «إن عمك يريد أن يحافظ عليك يا سيلفانا، يريد أن يحافظ على سمعتك وعلى شرفك وعلى اسمك يا حبيبتي. إنه في مقام والدك، لو كان والدك على قيد الحياة لما فعل إلا ما يفعل عمك الآن».

فمسحت سيلفانا دموعها الغزيرة المنهمرة على وجنتيها وهمست: «لا يا ألبرتو، لا يا حبيبي، إنك على خطأ، لم يكن عمي يوماً ليعاملني معاملته لأولاده. فهو لم يسمح لي بمرافقة أولاده الثلاثة بيترو وأنجيلا وماريو إلى المدرسة. كان أولاد عمي الثلاثة يذهبون إلى المدرسة في حين أقيم أنا في القصر. وقد عهد عمي إلى أستاذ عجوز بتلقيني العلوم داخل القصر، ولم تكن امرأة عمي ماريا لتسمح لي بأن ألعب مع أولادها، بل كانت ترغمني على الإقامة في غرفتي في حين ينطلق أولادها إلى الحديقة يلعبون ويضحكون ويطربون... وكثيراً ما كنت أدخل إلى غرفتي، وأنا صغيرة، وأجهش بالبكاء. وكانت العمة روزيتا تسرع إلي فتحتضنني وتقبلني بعطف وشوق وحنين، وتضمني إلى صدرها وتبكي... كانت ولا تزال العمة روزيتا تعطف علي وتقبلني عندما تخلو بي في غرفتها أو في غرفتي، أما بحضور عمي فهي لا تجرؤ

حتى على التحدث إلي. . . الكل غرباء عني في هذا القصر المنيف الذي يبدو هناك لعينيك يا حبيبي، الكل إلا العمة روزيتا.»

وعادت سيلفانا الحسناء لتمسح دموعها وتكمل حديثها: «والآن، الآن يا ألبرتو بعد أن بلغت التاسعة عشرة من عمري فأنا ما زلت غريبة في قصر عمي. إن أولاد عمي يخرجون كل يوم بسياراتهم الفخمة الأنيقة، يخرجون إلى دور السينما وإلى المنتزهات وإلى دور أصدقائهم، يخرجون إلى حيث يشاؤون، أما أنا فأظلّ في القصر فريسة الهواجس والأوهام والأفكار السوداء. . . لقد سئمت هذه الحياة القاسية المرّة المذاق، لا أعلم ماذا علي أن أفعل ولا أعلم إلى أين سينتهي بي المصير، كثيراً ما أفكر بالانتحار يا ألبرتو، وكثيراً ما أفكر بالهرب من هذا السجن الكبير الذي يسمونه قصراً منيفاً. . . قل لي يا ألبرتو، قل لي يا حبيبي ماذا علي أن أفعل».

وضمها ألبرتو إلى صدره برفق وحنان.

وهمس في أذنها: سيلفانا!. . . لقد أحببتك قبل أن أعلم أنك أميرة ابنة أمير، أحببتك لأنك سيلفانا، سيلفانا لا أكثر ولا أقل، وأنا سأظل أحبك يا حبيبتي ما حييت. ثقي يا سيلفانا أنني لن أتخلى عنك. إذا شئت أن تهربي معي الآن فأنا على استعداد للهرب بك. سنهرب معاً ونشخص إلى قريتي حيث نتزوج ونعيش هناك عيش الأزواج السعداء.

وشدت يد سيلفانا يد حبيبها ألبرتو وهمست: لا يا حبيبي، لا يا ألبرتو. أنا لن أهرب معك الآن. يكفيني الآن أنني أراك كل يوم وأنني أسعد بالاستماع إلى حديثك الحلو الشجي، ولكن سيأتي يوم، ولعلّه قريب جداً يا ألبرتو، أجد نفسي فيه مضطرة إلى الهرب من هذا القصر المنيف، ويومذاك ستجدني قادمة إليك لأقول لك: «هيا بنا. . .».

قال ألبرتو: وثقي أنني سأكون مستعداً للسفر بك إلى حيث تشائين يا حبيبتي.

وعادت سيلفانا إلى القصر.

وما إن وطئت قدماها عتبة القصر، حتى رأت العمة روزيتا بانتظارها والوجوم يطل من عينيها. . .

وأمسكت روزيتا يد سيلفانا وقادتها إلى غرفتها لتقول لها: سيلفانا أين كنت يا حبيبتي؟. . .

وكان بوسع سيلفانا أن تكذب على عمتها.

كان بوسعها أن تقول لها: «كنت هناك في الحديقة وراء القصر».

إلا أن سيلفانا كانت تحب عمتها روزيتا وتحترمها وتثق بها، ولذلك فهي قد قالت لها: لقد خرجت من القصر يا عمتي وشخصت إلى الشاطئ القريب.

وشدت أصابع العمة أصابع سيلفانا. وتمتمت: يا ابنتي الحبيبة، إياك أن تعودي إلى الخروج من القصر مرة ثانية.

وقالت سيلفانا: لماذا يا عمتي؟

قالت العمة روزيتا: إن عمك باولو علم أنك خرجت من القصر وهو غاضب عليك. لا أعلم ماذا سيفعل بك يا حبيبتي، على كل فأنا سأعمل جاهدة على التخفيف من حدة غضبه.

قالت العمة روزيتا هذا وخرجت من الغرفة.

وجلست سيلفانا على مقعد وثير وهي ترتجف من الخوف.

لم تكن سيلفانا لتجهل نتيجة غضب عمها.

كان عمها عندما يغضب يؤنبها تأنيباً شديداً ويسجنها في غرفتها مدة طويلة.

وكثيراً ما كان يعمد إلى ضربها.

وأقامت سيلفانا تنتظر حضور عمها.

كانت ترقب انفجار غضب عمها.

إلا أن عمها لم يطلّ ذلك اليوم.

بل أطلت العمة روزيتا بعد قليل لتضمها إلى صدرها برفق وحنان قائلة: سيلفانا!... لقد وفقت يا حبيبتي في تهدئة غضب عمك، ولكنني أرجوك ألاّ تخرجي من القصر بعد اليوم لأنني كما

تعلمين لا أستطيع دائماً أن أقنع عمك بالتزام الهدوء، أما الآن فعودي إلى غرفتك يا حبيبتي واستريحي...

وعادت سيلفانا إلى غرفتها.

واستلقت في سريرها تفكر: ماذا عليها أن تفعل الآن؟

هل تتنزل عند طلب العمة روزيتا وعند إلحاحها، وتنقطع عن الخروج من القصر؟

أتبتعد عن حبيبها ألبرتو؟ لا. لا وألف لا.

هي لن تستطيع الابتعاد عن ألبرتو.

لن تستطيع هجره.

لن تستطيع الانقطاع عن موافاته إلى الشاطئ الرحيب الفسيح.

هي ستخرج غداً من القصر في ساعة مبكرة من النهار.

وتعود إلى القصر.

وتناولت كتاباً وراحت تطالعه بنشوة وارتياح.

وإذا بالعمة روزيتا تطلّ عليها حاملة إليها الطعام والحلوى.

وجلست قربها على السرير.

وراحت تقدم لها الطعام بيدها لقمة لقمة: «خذي يا حبيبتي كلي. خذي هذه اللقمة، خذي هذه القطعة من الحلوى، هذا النوع من الحلوى مفضل لديك».

وتناولت سيلفانا الطعام والحلوى من يد عمتها بارتياح.

كانت سيلفانا ترى في تلك العمة النبيلة العزاء الوحيد.

ولم تنصرف روزيتا من غرفة ابنة أخيها إلاّ بعد أن اطمأنت إلى راحتها.

ونزعت سيلفانا ثيابها وارتدت ثياب النوم واندست في سريرها.

واستسلمت للرقاد لتحلم بحبيبها ألبرتو دوزميتي.

وفي الصباح أبكرت سيلفانا في النهوض من النوم. وارتدت ثيابها على عجل. وتسللت من القصر إلى الحديقة. ومن الحديقة تسللت، من الكوة، إلى الطريق العام. وأطلقت ساقيها للريح.

واندفعت إلى الشاطئ، وقد خيل إليها أنها ستضطر إلى انتظار ألبرتو.

من المؤكد أن ألبرتو لم يصل.

قد يكون غارقاً في النوم الآن.

ووصلت إلى الشاطئ.

ودهشت، وهي تشاهد ألبرتو جالساً على الرمال، وهو يحدق بالأمواج المتواثبة نحو الشاطئ على جوى وحنين.

وثب ألبرتو إليها يعانقها هامساً في أذنها: سيلفانا!... لقد

كنت على يقين من أنك ستحضرين الآن. ولذلك فأنا قد أبكرت في الحضور.

وهمست: ألبرتو!... أنا لن أستطيع البقاء هنا طويلاً. سأظل قربك اليوم ساعة، ساعة واحدة فقط. إنني مضطرة للعودة إلى القصر يا حبيبي.

قال ألبرتو: لماذا يا سيلفانا؟

وهمست سيلفانا: أخشى أن يكتشف عمي سري، لقد أخبرتني العمة روزيتا ليلة أمس بأن عمي علم بأنني خرجت من القصر، وهو غاضب علي، لذلك فقد أبكرت اليوم في الحضور إليك يا حبيبي كي أستطيع العودة إلى القصر قبل أن يكتشف عمي بأنني خرجت من قصره... تعال يا ألبرتو، تعال يا ألبرتو، تعال نستقلّ قارباً وننطلق به إلى متن البحر، إنني أخشى أن يرانا أحد هنا ويخبر عمي.

ونزل ألبرتو عند طلبها. واستأجر قارباً صغيراً.

ووثب إلى القارب يجلس على مقعده الخشبي. وجلست سيلفانا قربه.

وبدأ القارب يبتعد بهما عن الشاطئ.

ووصل القارب بهما إلى متن البحر، فأمسكت سيلفانا يد ألبرتو هامسة في أذنه: ألبرتو!... ما أسعدني الآن يا حبيبي وأنا

جالسة قربك. إنني لأتربع الآن على قمة السعادة العالية الشامخة الشماء.

وهمس ألبرتو: سيلفانا!... هكذا سنظل معاً أبد الدهر يا حبيبتي، هكذا سنظل مدى الحياة. لن يفرق بيننا أحد على هذه الأرض يا روح ألبرتو.

وفجأة ظهر قارب من بعيد.

وشاهدت سيلفانا ذلك القارب يقترب من قاربهما.

فالتفتت إلى حبيبها قائلة: ألبرتو!... انظر! هل تشاهد هذا القارب؟ يخيل إلي أن هذين الرجلين الجالسين فيه يراقباننا.

فهمس ألبرتو: لا تطلقي لهواجسك العنان. هذان صيادان هاويان. إنهما يصطادان السمك.

قالت سيلفانا بخوف واضطراب: فلنعد يا ألبرتو إلى الشاطئ. فلنعد يا حبيبي.

قال ألبرتو: ليكن ما تريدين يا سيلفانا.

وعاد ألبرتو بالقارب أدراجه.

وراح القارب الصغير يمخر بهما عباب اليم.

وعندما وصل القارب بهما إلى الشاطئ. كان الرجلان اللذان كانا في قاربهما الصغير، قد ترجلا من قاربهما وأسرعا بالاختفاء.

كيف ترجلا؟... وكيف اختفيا؟

هذا ما لم يعرفه ألبرتو ولا عرفته سيلفانا.

وودّعت سيلفانا كومبانيني حبيبها على أمل اللقاء في الغد.

وأسرعت بالعودة إلى القصر.

وكعادتها تسللت من الكوة إلى الحديقة.

وحاولت المسير نحو باب القصر إلا أنها ذعرت وقد شاهدت عمها يقف في الحديقة والسوط بيده، والغضب يطل من عينيه...

واقترب الأمير باولو كومبانيني من سيلفانا ليمسك يدها ويقول بغضب: يا مجرمة!...

وحاولت سيلفانا الإفلات من يد عمها. إلا أن الأمير باولو رفع سوطه وانهال به على ظهرها بلسعة شديدة...

وصرخت سيلفانا.

وشد عمها يدها. وأرغمها على الدخول إلى القصر..

وكانت زوجته ماريا تجلس على مقعد وثير تحيك الصوف، والغضب يطل من عينيها.

وهمست ماريا زوجة الأمير باولو كومبانيني: هذه الفتاة الفاسقة ستلوث اسم الأسرة بالعار. يجب التخلص منها.

وكان كلامها تحريضاً لزوجها.

والحقيقة هي أن الأمير باولو لم يكن بحاجة إلى التحريض.

فالغضب الشديد كان قد استبدّ به. ورفع سوطه وانهال به على سيلفانا...

ووقعت سيلفانا على الأرض تحت لسعات السوط المؤلمة. وأخذت تئن أنيناً يفتت الأكباد..

وكانت العمة روزيتا في غرفتها عندما سمعت أنين سيلفانا وعويلها وصراخها. فأسرعت إليها...

وشاهدت أخاها يضرب الفتاة بقسوة ووحشية.

فوثبت إليه صارخة به: ارفع يدك عنها أيها المجرم السفاح.

ودهش الأمير باولو. ودهشت أيضاً زوجته.

لم يكن ثمة من يجرؤ على الوقوف في وجه الأمير باولو كومبانيني في ذلك القصر. ولم تكن العمة روزيتا لتجرؤ يوماً على الدفاع عن سيلفانا.

كانت روزيتا تسرع إلى غرفتها لتبكي كلما شاهدت شقيقها باولو يضرب سيلفانا.

أما ذلك اليوم، فقد دبت الشجاعة في قلب العمة روزيتا. فوثبت إلى أخيها تمسك بيده وتصرخ به: يدك عنها أيها المجرم السفاح!

ووقفت ماريا، زوجة الأمير باولو تقول بغضب: ألم يكفنا ما نزل بنا منك؟... هذه الفتاة ليست من أسرتنا ويجب أن تموت.

وصرخت العمة روزيتا بها: ابنتي تموت؟ الموت لك ولزوجك...

وعقدت الدهشة لسان سيلفانا. ماذا تقول العمة روزيتا؟ هل يمكن هذا؟

أتكون روزيتا أمها؟

ونسيت سيلفانا ألمها وكلمات روزيتا تقع في أذنيها.

وإذا بالأمير باولو يقترب من أخته هادراً: اصمتي يا مجرمة.

وقالت روزيتا: أنت لا تحمل في صدرك قلباً من لحم ودم، إن قلبك من حجر. لقد كنت السبب في موت زوجي، وفي شقائي وتعاستي، وتريد أن تكون السبب في موت ابنتي؟... لا. أنا لن أسمح لك بعد اليوم بأن تسلبني ابنتي. ابنتي سيلفانا ابنتي... ابنتي.

وأخذت روزيتا تهذر: «ابنتي... ابنتي... ابنتي» وهي تجهش بالبكاء.

واقترب الأمير باولو من شقيقته هامساً في أذنها: اصمتي يا شقية. سيلفانا يجب أن تجهل الحقيقة، إذا وقفت هذه الفتاة على السر قتلتك وقتلتها.

قال الأمير باولو هذا ثم أمسك يد زوجته وخرج من الغرفة والغضب يهزه هزاً.

ووثبت سيلفانا إلى أمها لترتمي بين ذراعيها وتجهش بالبكاء.

وبكت روزيتا أيضاً. وضمّت سيلفانا إلى صدرها. وأخذت تتمتم: سيلفانا ابنتي... يجب أن نتحرر من هذه العبودية، يجب أن نحطم هذه القيود، يجب أن نخرج من هذا القصر يا سيلفانا.

وهمست سيلفانا باستفهام ملحاح: أنت أمي؟

وهمست روزيتا: أجل أنا أمك يا سيلفانا. تعالي، تعالي معي يا ابنتي لأطلعك على هذا السر الدفين العظيم الذي أحمله في صدري منذ عشرين سنة.

وأمسكت روزيتا يد ابنتها، ودخلت بها إلى غرفتها.

وهناك، في تلك الغرفة، جلست روزيتا تروي لابنتها المأساة المؤلمة الرهيبة.

قالت: كان ذلك منذ عشرين سنة، وكانت أمك صبية حسناء يا سيلفانا... وأحببت شاباً، شاباً فناناً، كان ذلك الشاب رساماً ماهراً، وجاء إلى هنا، إلى هذا القصر ليرسم صورتي... وكنت أجلس أمامه الساعات الطوال ليرسم صورتي، وأحببته حباً شديداً، وبادلني الحب، واتفقنا على الوفاء والإخلاص والزواج... وكنت أعلم أن أخي باولو، وهو ولي أمري بعد موت والدي لن يوافق على زواجي منه، كان باولو يريد أن يزوجني من أمير مثله، لذلك فقد اتفقت مع الشاب أنطونيو سوماني على الهرب معه والزواج منه... ونفذنا الاتفاق. وهربت وإياه، وسافرنا إلى قريته في

الشمال وتزوجنا. وعشت وإياه مدة ثلاثة أشهر عيش الأزواج السعداء... وكان باولو يبحث عني، لقد أرسل رجاله يبحثون عن الرسام أنطونيو سوماني... وتمكن أولئك الرجال من معرفة مقرنا... وفي ليلة من ليالي شهر كانون الثاني، كنت أجلس مع زوجي أنطونيو، مع والدك يا سيلفانا في غرفة الاستقبال قرب الموقد، وكان البرد قارساً والثلوج تغمر القرية بوشاحها الناصع البياض، أنا لن أنسى تلك الليلة ما حييت يا ابنتي. في تلك الليلة، اقتحم ثلاثة من رجال أخي دارنا الصغيرة في القرية، وكانو مدججين بالسلاح... ووقفوا في تلك الدار ليأمروني بالسير معهم. قالوا لي: «إن الأمير باولو أمرنا بأن نعيدك إلى قصره. إياك أن تحاولي التمرد والعصيان. لدينا أوامر بقتلك إذا اقتضى الأمر».

ولم أهتم لتهديدهم، بل وقفت لأقول لهم: «أنا هنا في دار زوجي ولن يستطيع أحد أن يخرجني من هذه الدار».

ووقف أنطونيو والدك يدافع عني ويحاول طرد الرجال الثلاثة من داره... إلا أن الأشقياء هجموا علي فكموا فمي وقيدوا رجلي ويدي وحملوني وهموا بالخروج من الدار... وإذا بزوجي الحبيب يسرع إلى بندقية الصيد فيصوبها إلى أحد الرجال الثلاثة ويطلق عليه النار... وأصابه الطلق في رأسه وصرعه فوراً.. وارتد الرجلان إليه وشهرا مسدسيهما... وانهال الرصاص على أنطونيو... ووقع والدك يتخبط بدمه أمام عيني. وقبل أن يلفظ أنفاسه نظر إلي وهمس: «روزيتا... أحبك وسأظل أحبك حتى

بعد الموت يا حبيبتي. أذكريني يا روزيتا وصلّي من أجل راحة نفسي».

ومات أنطونيو، وأغمي علي، ولم أستفق إلاّ وأنا هنا في هذا القصر.

ومسحت روزيتا دموعها وتابعت حديثها: بعد تلك الجريمة بسبعة أشهر رأيت أنت النور يا سيلفانا... ومنذ ذلك اليوم وأنا أعيش في هذا القصر على دموعي وآهاتي وآلامي، ومما زاد في عذابي هو أن خالك الأمير باولو أمر بأن تعيشي هنا في هذا القصر كالخادمة، وحرص على أن يخفي عنك حقيقة نسبك وأجبرني على التقيد بأوامره. لقد عشت أسيرة في هذا القصر عشرين سنة يا سيلفانا وحرمت من كلمة «ابنتي» عشرين سنة، ولقيت الأهوال من جور وظلم أخي باولو ذي القلب الحجري. أما الآن فقد حطمت هذا القفص وبسطت جناحي. وسأطير، إلا أنني لن أطير وحدي بل أنا سأمسك يدك يا صغيرتي الحبيبة وأطير وإياك.

وتعانقت الأم والابنة والدموع تنهمر من العيون الأربع...

ومسحت الأم دموعها.

وهمست: والآن... أخبريني أنت يا سيلفانا إلى أين تخرجين كل يوم؟ ومن هو هذا الشاب الذي تجتمعين به يا ابنتي؟

وروت سيلفانا لأمها قصتها كاملة.

هي لم تخف عنها شيئاً.

لقد روت لها كيف تعرفت إلى ألبرتو.

وكيف تعاهدت وإياه على الحب والوفاء والزواج.

وهمست روزيتا: أنا سأساعدك يا ابنتي الحبيبة على الزواج من حبيبك. لن تتعذبي يا سيلفانا كما تعذبت أمك ولن تشقي كما شقيت... اطمئني اطمئني يا حبيبتي.

واطمأنت سيلفانا. وقضت طيلة ذلك النهار في غرفة أمها.

وانصرفت روزيتا إلى جمع حليها وأموالها، ووضعتها في حقيبة جلدية.

وأقامت ترقب هبوط الظلام.

وعندما غمر الظلام إيطاليا بسواده الحالك، أمسكت روزيتا يد ابنتها وباليد الثانية حملت الحقيبة الجلدية. وتسللتا من القصر إلى الحديقة، ومن الحديقة تسللتا إلى الشارع العام، وشخصتا معاً إلى منزل ألبرتو.

وكان ألبرتو دوزميتي نائماً عندما سمع طرقاً خفيفاً على باب غرفته.

ووثب يفتح الباب.

ووقف مدهشاً، وهو يشاهد حبيبته سيلفانا وقربها امرأة في العقد الخامس من العمر تحمل بيدها حقيبة جلدية.

وهمست سيلفانا، وهي تدخل مع المرأة إلى غرفة حبيبها: ألبرتو. إنني أقدم لك أمي. أمي روزيتا. العمة روزيتا يا ألبرتو. إنها أمي. لقد قلت لك مرة: ستجدني يوماً قادمة إليك لأقول لك: «هيا بنا»، لقد جئت الآن يا ألبرتو. جئت مع أمي لأقول لك: هيا بنا...

وهمس ألبرتو: منذ أمد بعيد وأنا أنتظر هذه الساعة الهانئة يا حبيبتي. غداً مع مطلع الصباح سنشخص إلى «تورا» إلى قريتي، ويعقد زفافنا يا سيلفانا، ونعيش هناك في القرية الهانئة المعطاء حياة ناعمة سعيدة.

وفي الصباح، فيما ألبرتو يحزم حقائبه تأهباً للسفر، اقتحم غرفته ثلاثة شرطيين ورجل.

كان الرجل الأمير باولو كومبانيني. وكان باولو قد استعان برجال الشرطة ليعيد شقيقته وابنتها إلى قصره.

كان باولو يريد أن يحافظ على اسم أسرته.

لم يكن يريد أن يعلم أبناء نابولي أن روزيتا كومبانيني هربت من قصر أخيها مع ابنتها.

كان باولو يخشى الفضيحة، ويخشى أن ينتشر الخبر في نابولي. وكان يخشى أيضاً أن تعمد شقيقته بعد أن تغادر قصره إلى مطالبته بحصتها من ميراث والدها.

وهناك الطامة الكبرى...

وصرخ باولو برجال الشرطة: هذه هي شقيقتي، وهذه هي ابنتها. إنني أطلب إليكم أن تعيداهما إلى قصري.

وإذا بروزيتا تصرخ في وجه أخيها: نحن لن نعود إلى القصر يا باولو. لن أدعك تعيد تمثيل المأساة مرة ثانية. لقد حرمتني من حبيبي، وأنا لن أسمح لك بأن تحرم ابنتي من حبيبها.

قال الأمير باولو: أنت سارقة. لقد سرقت الحلى والمال من قصري. سيكون مقرك السجن يا مجرمة.

وهدرت روزيتا: أنا لم أسرق مالك، ولا مددت يدي إلى حليك. المال الذي أخذته هو مالي والحلى هي حلاي... اسمع يا باولو، إذا لم تعد مع الشرطيين من حيث أتيت فأنا سأعمد إلى إقامة الدعوى عليك أمام القضاء وأطالبك بحقوقي من ميراث والدي.

ووجم باولو: أتكون روزيتا جادة في تهديدها؟

وتابعت روزيتا كلامها.

قالت: أما إذا تراجعت عن خطتك المرسومة وعدت من حيث أتيت مع رجال الشرطة فأنا سأوقع لك تنازلاً عن حقوقي في الميراث.

وصمت الأمير باولو كومبانيني برهة ليقول: وقعي التنازل الآن.

ووقعته روزيتا. وخرج الأمير الإيطالي من غرفة باولو

متمتماً: لعن الله النساء كم يجررن على الأسر من المصائب والويلات.

وفي اليوم التالي كانت قرية تورا في إيطاليا تحتفل بزفاف ابنها البار المهندس ألبرتو دوزميتي على الآنسة سيلفانا سوماني.

وكانت الأميرة روزيتا كومبانيني والدة العروس تقف قرب ابنتها ودموع الفرح ترقرق في عينيها.

وما إن انتهت حفلة الزفاف حتى تقدمت روزيتا من ابنتها حاملة لها الحقيبة الجلدية.

وهمست روزيتا، وهي تضع الحقيبة بين يدي ابنتها وصهرها: هذه الحلى هي لك يا سيلفانا. إنها تحتوي على جواهر كريمة وعلى حلى ثمينة جداً. أما المال وهو ثروة كبرى... فهو هدية مني إلى صهري العزيز ألبرتو.

ووثبت سيلفانا إلى أمها تعانقها هامسة في أذنها: ستظلين هنا قربي وسنحيا معاً في هذه القرية الباسمة الهانئة السمحاء.

تمت

فهرس المحتويات

انتقام الميت

قلب من حجر